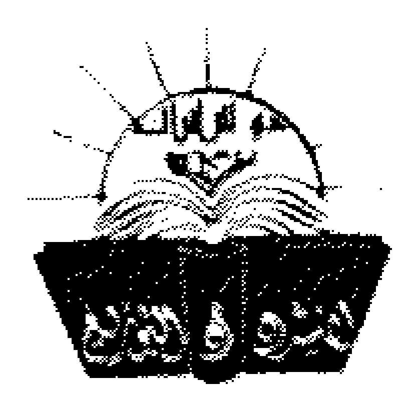
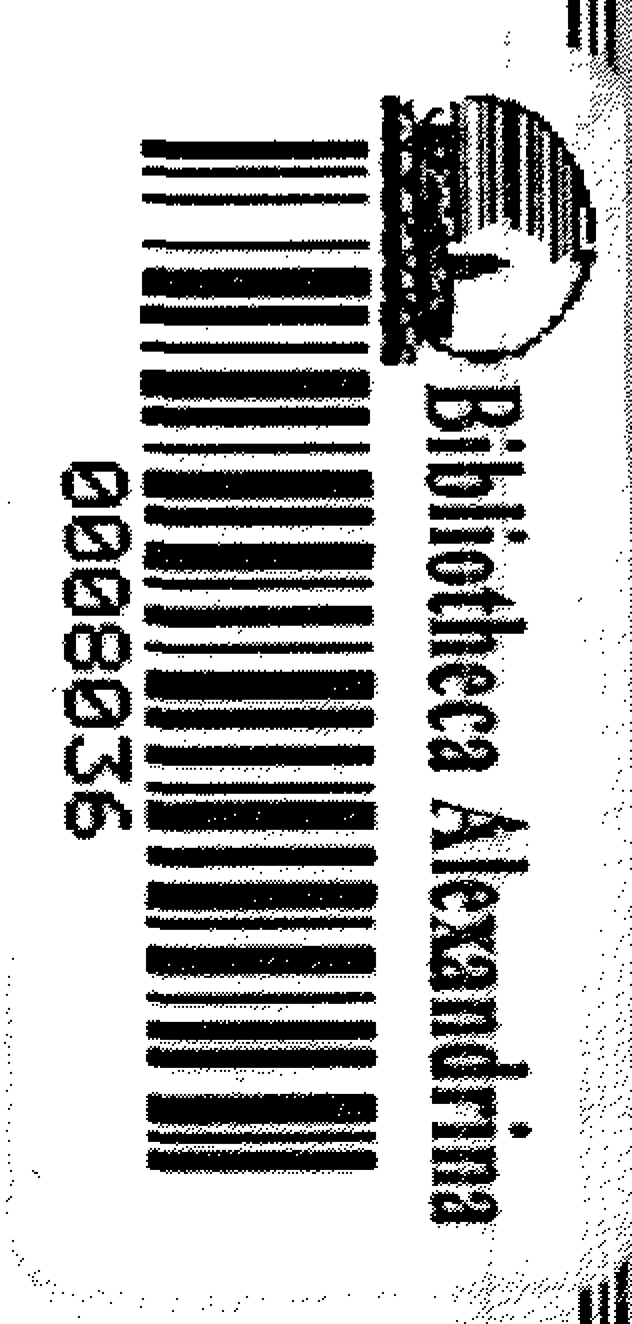
د. احمد الطويلي

عبد الله بن المقفع

دراسات ومنتخبات





نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله
تونس

د. احمد الطويلي

عبد الله بن المقفّع

دراسة ومنتخبات



نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله
تونس

مؤسسات ع. الكريم بن عبد الله

تونس

عبد الله بن المقفع

(106 ـ 142هـ)

هو عبد اللّه بن المقفع بن المبارك ، كنيته قبل الاسلام أبو عمرو ، وبعد أن أسلم أبو محمد ، واسمه بالفارسية روزبـه ويعني السعيد المبارك في كلّ أيامه (1) كان مجوسيا فأسلم على يدى عيسى بن علي عمّ أبي العباس السفاح ، وقد أبدى له رغبته في أن يسلم قائلاِ له : قد دخل الاسلام في قلبي ، وكان ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس .

أما والده فكان اسمه بالفارسية داذويه ، وكان متولّيا لخراج فـارس للحجّاج بن يـوسف ، واشتهـر بـالمقفّـع لأنـه ضرب

(1) روز: يوم، به: حســن.

بالبصرة ضربا مبرّحا من قبل الحجاج في مال للسلطان مدّيده إليه فتفقّعت يداه . وهناك رواية أخرى تؤوّل اسمه بأنه كان يعمل القفاع ويبيعها ، وهي نوع من القفاف .

أما موطن النشأة فيختلف أصحاب التراجم في ذكر المدينة التي جاء منها ، هل هي خوز أى خوزستان وهي مدينة فارسية قريبة من البصرة واسمها الأهواز، أم جور التي تعرف الان بفيروزآباد على مقربة من مدينة شيراز (2) وجور بلدة من أجمل المدن وأعمرها (3) .

ونشأ هذا الاختلاف في اسم مدينة النشأة بدون شك عن تحريف في الخط. وانتقل عبد الله إلى البصرة في ولاء آل الأهتم المعروفين بالبلاغة والفصاحة والخطابة . لكنّنا لا نعلم متى انتقل إلى البصرة ولعل ذلك في نعومة أظفاره ، وقد رغب والده في أن يتكوّن في العربية في هذه المدينة ، وقد كانت اذاك عاصمة للّغة والأدب والفقه والتجارة ، وكان سوق المربد فيها يجمع فصحاء العرب وبلغاءهم وشعراءهم في مجالس أدبية ولغوية ، فشب ابن المقفّع في بيئة أهّلته لأن يكون من أبلغ الكتّاب العرب ومن أكثرهم تعلّقا بالتأليف والتّرجمة والإفادة العلمية . وقد ساهم الإطار الطبيعي لمدينةالبصرة وما أضفاه

(2) محمد غفراني الخراساني: عبد الله بن المقفع: ص 62، وكذلك محمد كرد علي: أمراء البيان: ج 1، ص 102 .

(3) أمراء البيان: ص 102 .

الله عليها من جمال ، وما حباها الله به من مشاهد النخيل والمياه في تكوين ذوقه الجمالي وارهاف أحاسيسه وإذكاء فطنته .

ولاشك أن عبد اللّه بن المقفّع قد أخذ الكثير عن الأعلام الذين كانوا يختلفون إلى سوق المربد ، ولاتذكر كتب التراجم إلاّ علما واحدا أفاد منه ، هو أبو الجاموس ، وهو ثور بن يزيد كان يفد على البصرة على آل سليمان بن علي . كان ابن المقفّع يتحدّث عن تكوّنه الأدبي فيقول " شربت من الخطب ريّا ، ولم أضبط لها رويّا ، فغاضت ثم فاضت،فلا هي نظاما وليست غيرها كلاما " . وقد أهّله تكوينه أن يكون كاتبا عند داود بن هبيرة في كرمان وهو ابن والي العراق لمروان بن محمد ثم ان يشتغل اثر ذلك بالكتابة لعيسى بن علي عمّ الخليفة المنصور .

أوصافه :

كان ابن المقفع على أخلاق عالية ، وفيّا لأصدقائه الى درجة التّضحية بنفسه . فممّا يروى عن الكاتب عبد الحميد بن يحيى ، كاتب الخليفة الأموى مروان بن محمد ، أنه حين طُلِبَ بعد مقتل مروان سنة 132هـ ، وكان عند صديقه ابن المقفع ، سألهما الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كلّ واحد منهما: أنا ، خوفا من أن ينال صاحبه مكروه . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال: ترفقوا بنا ، إنّ لكلّ منّا علامات . فوكّلوا بنا بعضكم ويمضي البعض

الآخر ، ويذكر تلك العلامات لمن وجّهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد .

كما كان ابن المقفع جوادا كريما . يروى عنه أنه سمع بجار له يبيع دارا له في دين ركبه ، وكان ابن المقفع يجلس في ظل تلك الدار ، فقال: ما قمت اذن بحرمة ظلّ داره إن باعها معدما وبتّ واجدا . وحمل إليه ثمن الدار ورجاه أن لا يبيع .

كما يروى أنه أهدى صكّ ضيعته إلى جارية حين غنّت قائلا لها: هذه ضيعتي خذيها فأما الدّراهم فما عندى منها شيء .

وهكذا كان ابن المقفع ولوعا بالغناء والطرب ، كان مخالطا لجماعة عرف أفرادها بالمجون والتهتّك من أمثال مطيع بن إياس ويحيى بن زياد ووالبة بن الحباب . يذكر صاحب كتاب " الأغاني " أنّهم كانوا يتنادمون ولا يفترقون ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك . وقد كلف ابن المقفع بالجمال والطرب ، " فكان يغشى معاهد الصّفاء ويجتمع إلى القينات ويطرب في غير محرم ويتعاطى قليلا من الشراب من نبيذ العراق الذى أفتي بحله فقهاؤهم ويقول:

سأشرب ما شربت على طعامي ثلاثا ثم أتركه صحيحا
فلست بقارف منه أثاما ولست براكب منه قبيحا"(4)

---

(4) محمد كرد علي: أمراء البيان: ص 119 .

وكـان ابن المقفـع يلتزم الأخـلاق الـرفيعـة ، والسّلوك الصالح. سئـــل : من أدّبك؟ فقـــــال : نفسي، إذا رأيت من غيري حسنا أتيته وإن رأيت قبيحا أبيته . وإنّ من يقرأ تآليف ابن المقفع ليدرك أي فيلسوف أخلاقي هو! فهو يـدعو فيهـا الى العدل والخير والصلاح، ويأبى الظلم والشرّ والطّلاح، ويضرب الأمثلة تلو الأمثلة ليبينّ أنّ مآل الظّالم الخسران المبين ، ومآل الصالح الفوز والنّجاح . وكان ابن المقفّع كما ذكر ابن النديم في " الفهرست" " في نهاية الفصاحة والبلاغة ، كاتبا شاعرا فصيحـــا''. وكان مثقّفـــا رثقافـــة عصره الفلسفيـــــة والدينيـــــة والأخلاقية ، إلى جـانب تضلّعه في الأدب واللغـة والشعر . سئل الخليل بن أحمد مكتشف علم العروض وصاحب كتاب " العين" في اللّغة: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال: علمه أكثر من عقله . ويمثّل هذا القول شهادة من عالم لغوى في معاصر لـه يمثّل عصره ومـا وصـل إليـه في ميـدان الفكـر والأدب والحضارة. وقـال عنـــه الجاحـــظ : ''ومـــن المعلـــمين ثم البلغـــاء المتأدبين عبد اللّه بن المقفع ، كان مقدّمـا في بلاغـة اللّسان والقلم والتّرجمة واختراع المعاني وابتداع السّير . وكان اذا شاء أن يقول الشّعر قاله ، وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلا ولا كثيرا ، وكان ضابطا لحكايات المقالات"(5) .

(5) عن خليل مردم: ابن المقفع: ص 40.

اتهامه بالزندقة:

رمي ابن المقفع باطلا بالزندقة واضمار المجوسية. فقد كان الخليفة العباسي المهدى يقول عنه: ما وجدت كتاب زندقة الا وأصله ابن المقفع. ومفهوم أن خلفاء بني العباس كانوا يتّهمونه بالنّفاق ويذمّونه وينتقصون فضله ودينه لموالاته أعداءهم الثائرين عليهم من أعمامهم، ولعلّ مثل هذا القول من المهدى يبرّر في نظر العباسيين مشاركة المنصور الخفية في قتله. ومن الأسباب الداعية لاتّهام ابن المقفّع بالزندقة ما قيل عنه أنّه مرّ يوما ببيت نار المجوس بعد إسلامه فتمثّل بقول الأحوص:

يا بيتَ عاتكة الذى أتعزّل   حذر العدى وبه الفؤاد موكّل
إنّي لأمنحك الصّدود وإنّني   قسما إليك مع الصّدود لأميل

والحقيقة أنه لا يجوز لأحد أن يتّهم مؤمنا بالكفر. صحيح أن والده كان مجوسيا، وأنه كان في أول حياته على دين أبيه، وأنه كان مطّلعا على ما كان منتشرا في عهده من الأديان والمذاهب بفارس والهند مثل المزدكية والزرادشتية والمانوية، وأنّه كان مثقّفا بثقافة عصره الدّينية والكلامية والفلسفية، وأنه اطّلع بفضل حذقه للفارسية على كثير من الكتب تتّصل بتلك الأديان والمذاهب الروحية، وأنّه كان يترجم من تلك اللغة بعضا من آثارها الفكرية أو ممّا نقل إليها من كتب المنطق الّتى ألّفها خاصة أرسطو. لكن يجب أن لا يغيب عنّا أنّ ابن المقفّع قد دخل الإسلام قلبه ورضي بأن

يسمّى بعبد الله ويكنى بأبي محمد ، كما أنّ تآليفه تردّد معاني الإيمان باللّه ، " والرّاجح أنّ الحسد غلت مراجله في صدور بعض معاصريه فنسبوا إليه ما نسبوا من الزّندقة لقصورهم عن بلوغ شأوه أو لغرض في أنفسهم» (6) . يقول محمد كرد علي:

" ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبّرناه ، فما رأينا له كلمةواحدة تشعر بزندقته ، وكيف تثبت الزندقة اذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال؟ ولو كان في دينه أدنى عهدة لكان المنصور العباسي قتله على الزندقة جهرة يوم أزمع قتله "(7)

ويتساءل الأستاذ خليل مردم بدوره عن دواعي اتّهام ابن المقفّع بالزّندقة وينفي في استنتاجاته هذا الاتهام فيقول:
" ما أدرى من أين آستدلّ النّاس على زندقته وكيده للاسلام ، فان كان من كلامه فليس هناك مغمز . . . وإن كان بأفعاله فلم يرشدونا الى شيء مقنع منها . . . لا أنكر أنّ الفرس أدخلوا شبهات كثيرة على الإسلام وأنّ بعضهم دعا إلى مقالات تخالفه وأنّ بعض آراء المانوية استهوت بعض الناس ولكنّ الباحث لا يقدر أن يثبت بالبرهان شيئا من ذلك على ابن المقفع "(8) .

---

(6) محمد كرد علي: رسائل البلغاء: ص 8 .

(7) أمراء البيان: ج 1، ص 122 .

(8) ابن المقفع: ص 54، 55 .

لقد كان ابن المقفع من أصحاب الفكر الحر ، شقّ طريقا خاصا لنفسه في أسلوبه ومضامين كتبه ، وحرّر نفسه من التّقليد ومن المعتقدات الفارسية القديمة ، وأهمها الزرادشتية التي تقول بوجود الهين اثنين ، اله للخير واله للشر ، روحاهما يعيشان معا في الاه (9)، وكانت رغبة ابن المقفع في إصلاح الدولة الاسلامية الجديدة وتنظيم مؤسساتها عارمة ، كما أنه كان يتحمّس شديد التحمّس في إدخال مواد جديدة للثّقافة الإسلامية من الثّقافتين الفارسية واليونانية ، وساهم في جعل العربية أداة حضارية مرنة تضطلع بدورها الإنساني الحضارى المجيد . وقد كان ابن المقفّع رائدا في ميدان التّرجمة سبق غيره من المترجمين الكبار في عصر المأمون ، وفتح لهم الطريق مبيّنا أنّ العربية غير عاجزة عن التّعبير عن أدق الأفكار وأعقدها في أى مجال من مجالات العلوم الانسانية ، وقد ساعد ابن المقفّع على خلق المناخ المناسب لحركة ترجمة متقدمة ومتطوّرة . ويمكن أن نصف ابن المقفّع برائد المترجمين في الحضارة العربية والحركة العلمية الاسلامية ، وقد اكتفى بمفردات اللغة العربية وتعابيرها ولم يشوّه الفصحى بألفاظ أجنبية عنها ، ولا بتعابير ملتوية معقّدة كما ادعى بعض المؤلفين ، فمؤلفات ابن المقفع من أولى

(9) من أقوالها إنّ للنّاس حرّية الاختيار لأعمالهم ومصائرهم وهم المسؤولون عنها فيحصلون على الثّواب أو العقاب تبعا لما يأتونه من الحسنات أو يقترفونه من السيّئات، وفي منشإ الزرادتشية غموض، انظر:

Lewis M.Hoppe, religions of the world, 3e édition U.S.A 1983.

المؤلّفات المترجمة التي لم يحتج صاحبها فيها إلى الاقتباس من المعجم اللغوى الفارسي أو اليوناني ، وقد استعمل مفردات اللّغة العربية في نصاعتها و فصاحتها (10) ، ويمكن أن نعدّ ما قام به ابن المقفّع في هذا المجال فضلا كبيرا على العربية .

وفاته:

يجمع المترجمون لعبد اللّه بن المقفّع أن قاتله هو سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة أمير البصرة ، وقد نفّذ أمرا لأبي جعفر المنصور في ذلك لأسباب سياسية سنبيّنها. وقد خفّ سفيان لتنفيذ الأمر لحقد دفين كان يكنّه لابن المقفّع الذى كان ينال من أمه ويسمه بابن المغتلمة ، وكان يسخر من أنفه الكبير ، فكان إذا دخل عليه قال: سلام عليكما ، وكان يتهجّم عليه على ملإ من النّاس . فكان سفيان يتوعّد بقتله أشنع قتلة ، فوجدها فرصة سانحة حين حنق عليه المنصور . وتروي كتب التّراجم أنّ ابن المقفّع استأذن عليه يوماً ، وقد أرسله عيسى بن علي في أمر أخيه عبد اللّه ، وامتنع في الأوّل لكن عيسى طمأنه وأكد له أنه في أمانه ، ولما مثل أمام باب سفيان أبقاه ينتظر حتى خرج من

---

(10) أعد الدكتور ابراهيم السامرائي معجما لغويا لالفاظ ابن المقفع في كتابه " من معجم عبد الله بن المقفع " عن دار الرسالة، بيروت 1984، وقال عن كتاب " كليلة ودمنة "من الكتب التي تتسم بالعربية الفنيّة فصاحة وبلاغة، وأنها نموذج عال من نماذج النّثر الفنّي " (ص 6) .

كان عنده ثمّ أذِن له فدخل ، فسأله سفيان : أتذكر ماكنت تقـول في أمي؟ فقال: أنشـدك الله أيها الأمـير في نفسي ، فقال: أمّي مغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد .

وأمر بتنّور فسجر (11) ، ثم أمر بـابن المقفّع فقـطعت أطرافه عضواً فعضواً ، وهو يلقيها في التنور وهو ينظر حتى أتي على جميع جسده ثم أطبق عليه التنّور ، وقال: ليس عليّ في المثلة بك حرج لأنّك زنديق ، وقد أفسدت الناس .

ولعلّ هذه الرواية مبالغ فيها فكيف يقطع إرباً إرباً وهـو ينظر ولا يفقد وعيه؟ وهناك روايات أخرى تصوّر قتله بطرق مختلفة منها أن سفيان ألقاه في بئر وردم عليه الحجارة أو أنه أدخله حمّاماً وأغلق عليه بابه فاختنق .

وسأل عنه سليمان وعيسى ابنا علي حين لم يرجع من لدن سفيان وخاصما الوالي إلى المنصـور ، وحضر الشهود الـذين شاهدوا ابن المقفع يدخل داره ولم يخرج فقـال لهم الخليفة: أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفّع من هذا البيت ـ وأشار إلى باب خلفه ـ وخاطبكم ما تروني صـانعاً بكم؟ أأقتلكم بسفيـان؟ فرجـع الشّهود عن شهـادتهم ، وعلم كل النّاس أن قتله برضى المنصور .

أمّا تاريخ قتله فيختلف حسب روايات عديدة منها أنّه قتل

(11) سجر التنور: ملأه وقودا وأحماه.

سنة 142 أو 143 ، أو 145 ،والمرجّح سنة 142 ، وهي سنة وفاة سليمان بن علي ، وهكذا كان قتله جريمة سياسية بسبب الأحقاد والأضغان وتسوية الحسابات الشخصية ، وعمره لا يتجاوز ستا وثلاثين سنة حسب الروايات ، توفي في أوج شبابه وعطائه الأدبي والعلمي . وقد تضافرت أسباب عديدة دفعت المنصور إلى الرّغبة في التخلّص منه ، حتى أمر بقتله قائلا: أما يكفينا أحد ابن المقفّع؟ وفي رواية أخرى أنه كتب لسفيان يقول: لا يفلتنّك ابن المقفّع حتّى تقتله(12).

ويبدو أن السّبب هو كتابة ابن المقفّع لعهد الأمان لعبد الله بن علي وتشديده فيه الشروط منها: متى غدر أمير المؤمنين بعمّه عبد اللّه بن علي فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حلّ من بيعته؛ وكتابته لرسالة الصحابة التي توشك أن تكون برنامج ثورة في رأى طه حسين (13) ، والتي تعرض فيها الى نقائص الحكم العباسي وأظهر فيها خطل سياسية المنصور في معالجة الأوضاع السائدة في الدولة في القضاء والخراج والجند ، والتي كانت بمثابة دعوة قد تكون سببا في إثارة الجماهير عليه ، وسمح كاتبها لنفسه بتوجيه النّصح والارشاد الى الخليفة فاعتبر المنصور وجوده خطرا على الدّولة وعزم على التخلّص منه (14) ، لا سيما وأن السلطة

---

(12) حسن فاضل زعين العاني: سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية، دار الرشيد، بغداد 1981 ،ص160، وانظر هنالك المصادر التاريخية عن ابن المقفع.

-١٠) من حديث الشعر والنثر، دار المعارف مصر، مصر 1961 ،ص 41.

(14) حسن فاضل زعين العاني: سياسة المنصور أبي جعفر: ص 160.

أصبحت مقدسة مستمدة من اللّه تعالى اذ خطب المنصور قائلا: أيها النّاس إنّما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده" كما أن الإمامة كانت نظريّتها الدعامة الأساسية للدّعوة العبّاسية مستندة على الحقّ الالاهي في الحكم ، فلا يستبعد إذن أن تكون الدولة العباسية قد أشاعت القول إنّ ابن المقفّع زنديق يستحقّ القتل ، لذلك كثيراً ما نقرأ هذه التهمة خاصة في المصادر التّاريخية عن ابن المقفع .

عصـــره:

عاش ابن المقفّع ستّا وثلاثين سنة (106 ــ 142) ، مزامنا الدولتين الأموية في آخر عهدها المضطرب (26 سنة) والعباسية في أوج قوّتها حينما بدأت توّطد أسسها وتدعم حكمها . لقد عايش ابن المقفّع خمس خلفاء أمويين أبعد جلّهم عن الحكم بالخلع أو القتل ، وكانت سيرة الكثير منهم الأخلاقية غير مستقيمة خاصة الوليد بن يزيد بن عبد الملك المشهور بالخليفة الفاسق وقد قبل سنة 126 ، كما أن سياسة الخلفاء الأمويين كانت تعتمد " إيغار القلوب ، وتفتيت الروابط الأسرية بين أفراد البيت الأموى ، واثارة الفتن والقلاقل والمنازعات بعد وفاة كلّ خليفة ، وقد عجّل ذلك بتصديع الكيان الأموى" (15) ، ومن المعروف أن الأمويين قد أقاموا دولتهم على الخديعة والدسّ والقهر والسّفك واضطهاد العلويين

(15) السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الاول، الاسكندرية، د. ت. ص 37.

بعد أن اغتصبوا حقّهم الشّرعي في الخلافة وتتبّعوهم بالقتل (16) . ويعتبر اِنتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين ثورة جذرية حاسمة في تاريخ الإسلام كما كان إشارة إلى تحوّل اجتماعي وحضاری كبير إذ صارت الحضارة الاسلامية متفتّحة على حضارات الأمم المختلفة غير العربية ، وانتقلت من حضارة عربية صرف إلى حضارة إسلامية ، وهيّأ المناخ لنموّ مجتمع إسلامي متوازن (17) ، فقد عملت الثورة العباسية على تحرير طبقة العمال والفلاحين من السيطرة الأموية وإعفائهم من الجزية والسّماح لهم بامتلاك الأراضي (18) . والّذى يهمّنا في هذا المجال هو ازدهار التجارة مع بلدان الشرق الأقصى خاصة الصين والهند والملايو ، ونتج عن ذلك تفتّح على المعتقدات القديمة . كما أنّ أبا جعفر المنصور فتح عهده بالاهتمام بالعلوم فقرّب المنجّمين وعمل بأحكام النّجوم وأمر بترجمة الكتب السّريانية والفارسية واليونانية ، وفي هذا الإطار العلمي والثقافي ترجم ابن المقفّع كتاب «كليلة ودمنة» . وهذه بعض الأحداث السياسية في آخر العهد الأموى حيث توالت توليات الخلفاء إلى أن صرع آخرهم:

سنة 96 : تولية سليمان بن عبدالملك بعهد من أبيه عبد الملك بن مروان ، وكان فصيحا مفوّها ، كان له عمر بن عبد

---

(16) نفس المرجع: ص 23.

(17) عز الدين اسماعيل: في الأدب العباسي: الرؤية والفن، بيروت 1975، ص 24، 81.

(18) السيد عبد العزيز سالم: الكتاب المذكور، ص 49

العزيز كالوزير يمتثل أوامره ، فعزل عمال الحجّاج بن يوسف وأخرج من كان في السجن .

سنة 99 : وفاة سليمان وتولية عمر بن عبد العزيز ، ويوصف بأنه ملأ الأرض عدلا وردّ المظالم وسنّ السّنن الحسنة ، وقد التزم بالمبادىء التي أعلن عنها في خطبته حين قال: أيها النّاس إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وانّي لست بقاض ولكنّي منفّذ، ولست بمبتدع ولكنّي متّبع، ولست بخير من أحدكم ولكنّي أثقلكم حملا، وإنّ الرّجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق . وكان يقول لعمّاله: خذوا الناس بالبيّنة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحقّ فلا أصلحهم اللّه . وكان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهة أن يعجّل في أوّل غضبة . وكان يقول: أيها النّاس أصلحوا أسراركم تصلح علانيتكم ، وآعملوا لاخرتكم تكفوا دنياكم ، واعلموا أنّ رجلا ليس بينه وبين آدم أب حي لعرق له في الموت . وكان ينهى النّاس عن المراء والغضب والطمع ويحثّهم على العدل والحقّ .

سنة 101 : وفاة عمر بن عبد العزيز مسموما وتولية يزيد بن عبد الملك بن مروان

سنة 102 : خروج يزيد بن المهلب على الخليفة ومقتله .

سنة 105 : وفاة يزيد بن عبد الملك وتولية أخيه .

سنة 125 : وفاة هشام وتولية الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الفاسق.

سنة 126 : مقتل الوليد بن يزيد وتولية قاتله يزيد الناقص ، ثم ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك .

سنة 127 : خلع إبراهيم وتولية مروان بن محمد الشهير بالحمار وذلك لأنه كان لا يكفّ عن محاربة الثائرين عليه ، كان يصل السّير بالسير ، ويصبر على مكاره الحرب . ويقال لقّب بالحمار تبعا للمثل: فلان أصبر من حمار . وكان مشهورا بالفروسية والإقدام والدّهاء والعسف ، وهو الذّي خرج عليه بنو العبّاس وعليهم عبد اللّه بن علي .

سنة 132 : مقتل مروان بن محمد بن مروان وكنيته أبـو عبد الملك ولقبه الجعدى نسبة إلى مؤدّبه الجعـد بن درهم . وهو آخر خلفاء بنه أمية بالمشرق ، قتل في مصر بقرية بـوصير ، وتولّى بعده أبو العبّاس السفّاح .

سنة 136 : موت أبي العباس وتولية أبي جعفر المنصور . وهو الذي بنى بغداد واتّخذها عاصمة للخلافة .

سنة 158 : وفاة المنصور وتولية ابنه المهدى محمد بن عبد الله وكنيته أبوعبد الله .

هكذا كان العصر الذى عاش فيه ابن المقفع عصرا اتسم بالاضطرابات والتململ والثورات المتتالية ، وقد بلغ الذروة في الفتن والتآمر والتقاتل بين فئات مختلفة ، بين القيسية واليهانية من جهة وبين العرب وغيرهم من العجم ، وبين أهل السنة والشيعـة، وبـينهم وبين الخوارج من جهـة أخـرى. والمشكلـة الاساسية الجديدة التى واجهها الخلفاء العباسيون الجـدد في

تأسيسهم لدولتهم هي كيف يتم الحكم في هذا المجتمع العظيم ، الممتد على أراض فسيحة شاسعة من أقصى المغرب إلى أقاصي بلاد الهند ، والمتكون من أجناس عديدة مختلفة وأحيانا متناوئة ومتنافرة بل كيف يكون التغلب على هذه الفئات الكثيرة المتعددة المذاهب والاتجاهات العقائدية وكيف تقع ترضية هذه المجموعات البشرية الكثيفة التي كانت تناهض بضراوة وشراسة الحكم الاموي لما اتسم به من تعصب للعرب ، وايثار لهم على الفرس والموالى بالتوليات والخطط ، مما نتج عنه انعدام المساواة التى ينادي بهاالاسلام بين المسلمين ، وابتعاد الحكام المسلمين عن نظام الحكم الاسلامي المعتمد على العدل والتقوى والحسنى .

وقد خاض ابن المقفع في هذه المسائل وقدم حلولا عملية للخليفة في جميع مؤلفاته للنهوض بالدولة الاسلامية وارسائها على قواعد سليمة من الأخلاق وحسن الرأي ومراعاة الرعية في حياتها بوجوهها المختلفة .

مؤلفاتـــه

ترجـــم ابـــن المقفـــع عددا من المؤلفـــات من الفارسيـــــة إلى العربية . لنا عناوين عـديدة لما كتبه . منهـا الضائـع ومنها المطبوع . نذكر من المفقود:

-1- كتاب خداينامه في سير ملوك العجم أي الفرس . يظن المستشرق نيكلسون في كتابه " تاريخ آداب العرب " أنّ هذا الكتاب كان مثالا للعرب في تدوين التاريخ .

-2- كتاب آيين نامة: وهو في السّياسة .

-3- كتاب التّاج في سيرة أنو شروان والآداب التي يجب على الملوك أن يتّبعوها .

-4- كتاب مزدك يظنّ المستشرق نولدكه أنه كتاب في الأدب ، وضع للتّسلية وليس في صاحب المذهب الذي ينسب اليه وقد عاش أواخر القرن الخامس ق م .

وهنالك عناوين لكتب ترجمها ابن المقفع عن اليونانية بواسطة الفارسية وهي في المنطق والجدل والحكمة منها:

ـ5ـ كتاب قاطيغـورياس أي المقـولات العشر لأرسطو ، وهذا الكتاب ترجمه ابن المقفّع بتصرّف ملخّصا شارحا .

ـ6ـ كتاب باريمينياس Peri Hermenias أي العبارة ، ذكره ابن النّديم في " الفهرست " .

ـ7ـ كتاب أنالوطيقا Analytica

ـ8ـ كتاب ايساغـوجي في المنطق Eisagogue لفـرفوريـوس Porphyre الصوري ذكره ابن أبي أصيبعة في كتاب «عيون الانباء في طبقات الاطباء " ونضيف إلى تآليفه الضائعة كتابه الهام :

ـ9ـ الدرّة اليتيمة : نشر منه عيّنة الأستاذ محمد كرد علي في " رسائل البلغاء " (ص 115ـ118) ، وقد أشـار اليه أبـو تمام في قوله للحسن بن وهب :

فكأنّ قسّا في عكاظ يخـطب وكـأنّ ليلى الأخيليـة تنـدب

وكثّيـر عزّة يـوم بيـن يـنسب وابن المقفّع في «اليتيمة» يسهب

ونلاحظ أن رسالة الأدب الكبير نشرت أحيانا تحت عنوان " الدرة اليتيمة " بينها محتوى هذا الكتاب مختلف .

أما المطبوع من تآليف ابن المقفّع فنذكر ما سنخصّه " .

ـ1ـ رسالة الأدب الصغير .

ـ2ـ رسالة الأدب الكبير .

ـ3ـ رسالة الصحابة .

ـ4ـ كليلة ودمنة .

ـ5ـ حكم ونتف وتعاز جمعها له محمد كرد علي في " رسائل البلغاء " (ص 131ـ138) .

رسالة الأدب الصغير

سميت الرسالة بالأدب الصغير لأنّ ابن المقفع يتوجه فيها إلى العامة ليحثّهم على المحبّة وفعل الخير والتحلي بالأخلاق الحميدة ، بينما سمّيت الرّسالة الثّانية برسالة الأدب الكبير لأنّ المؤلّف يتوجّه فيها بالخطاب إلى السّلطان والخاصة .

ففي " الأدب الصغير " يوصي ابن المقفع باتّباع مجموعة من القيم الأخلاقية تتعلّق بالاضطلاع بالواجب والتعقل والتروّى في الفكر والاعتدال والحذر واليقظة والحزم والوفاء في الصداقة . وأتت هذه الرسالة في صورة خطرات موجزة مركّزة . ولم يتوخَّ ابن المقفّع فيها تخطيطا يركّز على أهم محاورها . وفي الواقع إنّه ليصعب ضبط هذه المحاور لكثرتها . ونتساءل عن هذه الحكم هل هي وليدة تجارب شخصية أم هي لمع اجتهد ابن المقفع في ترصيفها والتعبير عنها في قالب أدبي بليغ وفي كلمات فصيحة قحة موحية . ولا شكّ أنّ ابن المقفّع استوحى كثيرا من حكمه من الكتب الأخلاقية الفارسية أو الهندية أو اليونانية المترجمة إلى الفارسية ، ونذكر من هذه الكتب تآليف البراهمة والبوذية والزرادشتية والمزدكية والكونفشيوسية التي كانت رائجة

في فارس والهند ، وهي تدعو جميعها إلى حسن الأخلاق ، كما أنّ ابن المقفّع اِلتزم بالتعاليم الاسلامية الأخلاقية السامية الواردة في القرآن الكريم والأحاديث النّبوية الشّريفة ، فجاءت رسالته هذه مثل رسالة الأدب الكبير صورة تنعكس فيها هذه الثقافات المختلفة العربية والفارسية والهندية والصينية واليونانية ، تمتزج كلّها وتنصهر في بوتقة الثّقافة العربية الاسلامية . فابن المقفّع يتوجّه في هاتين الرسالتين إلى الإنسان العاقل بمجموعة من النّصائح ليستفيد منها ، ويقف عندها متأمّلا فيها. وهي لئن كانت مستقاة من هذا التراث الأدبي الأخلاقي الشرقي القديم فقد صبغها ابن المقفّع بأسلوبه الأدبي الخاص ، وبثقافته المتنوّعة الاسلامية خاصة وبالأخصّ بلغة القرآن المجيد . ولعل هذه الحكم كانت في قالب لغوي بسيط ، فخلع عليها زيّا قشيبا من الألوان والأصوات والتوازن الجميل بين الكلمات والعبارات .

فقد قدّم ابن المقفّع هذه الرسالة بقوله بعد أن أدلى ببعض الحكم تتعلّق بالعقل والأدب وصلة هذا بالآخر: "وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام النّاس المحفوظ حروفا فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها واحياء للتفكير وإقامة للتّدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله" (1) .

(1) ص27 من طبعة يوسف أبو حلقة

وبالجملة فانّ هذه الرسالة تتضمّن مجموعة من الحكم تتّصل بما يجب على العاقل إزاء نفسه ومجتمعه وربّه . فالإنسان ــ حسب هذه الحكم ــ يجب أن يذكر الموت ويحاسب نفسه في الصّغيرة والكبيرة وأن لايصاحب الاّ ذوى الفضل في العلم والدين والأخلاق وأن لايرغب الاّ في ثلاث خصال: تزّود لمعاد أو ما يكفي لمعاش أو لذة في غير محرم (ص47) . ويحتل الأدب بمفهومه الأخلاقي مكانة ممتازة في تفكير ابن المقفّع ، فهو عنده بمثابة الماء الذي يخلع عن الأرض يبسها وقحولتها ، وهو النّماء للعقل واللّقاح له. والحكيم المنضّد للحكم مثل الصائغ للياقوت والزبرجد والمرجان . وأول شرط من شروط التعقّل هو المحبّة عامة أي محبة الخير للعباد قاطبة . يقول ابن المقفّع: " اذا هممت بخير فبادر هواك لا يغلبك ، واذا هممت بشر فسوّف هواك لعلّك تظفر (ص63)».

ويدعو ابن المقفع إلى العلم والتزيّن بالجود والعفو وتعهّد الدين وحسن السّلوك في النّاس والابتعاد عن الكذب والاتّعاظ بالغير ، والتحلّي باللطف واللّين مع البشر . وفي كلمة توصي الرّسالة بتهذيب النّفس وتكميل العقل وتحسين التصرف . ويضع ابن المقفّع معادلات تهم العقل والسّلطان والدّين والدّنيا والإخوان والأصدقاء ، ولا يتخلّف عن التّعنيف واستعمال لهجة حادة خاصة إزاء الأيمة والملوك والسلاطين ، يقول بنبرة حاسمة فيها نقد اجتماعي واضح ورغبة في الاصلاح النّفساني الجذري :

"ومن نصب نفسه للناس إماما في الدّين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطّعمة (أي الكسب) والرأي واللفظ والأخدان، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنّه كما أنّ كلام الحكمة يونق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون. ومعلّم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال والتّفضيل من معلّم النّاس ومؤدّبهم» (ص49) . أما الخصال التي ينبغي للوالي أن يتحلّى بها في نظر ابن المقفّع فهي أربع: التخيّر للعمّال والوزراء، وحسن التّقديم والتّوكيل، وتعهّد الولاة، وجزاؤهم بالثّواب أو العقاب.

رسالة الأدب الكبير

نشرت هذهالرسالة تحت هذا العنوان ، ومرات أخرى غلطا تحت عنوان " الدّرة اليتيمة " ، وحجمها أكبر من حجم رسالة الأدب الصغير ، وهي موجّهة في أوّلها إلى الملوك والخاصة عامة ، وغاية ابن المقفع منها إصلاح الحكم والمجتمع ، والرفع من مستوى الناس الأخلاقي والروحي لتوفير السّعادة لهم في الدارين . وهذه الرسالة أكثر تنظيما من الأولى ويمكن أن نميّز فيها قسمين: قسما موجّها إلى السّلطان وصحّابته وقسما ثانيا خاصا بالصّديق والصّداقة . وكلا القسمين في قالب نصائح وحكم .

يبدأ ابن المقفع بمدح الأجداد ، ويشير إلى أنّ هذه الحكم مقتبسة منهم حتى إنّه " لم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال" (ص100) ويقول: "وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقّة من جسام حكم الأولين وقولهم ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي

هـذا من أبـواب الأدب التي يحتـاج إليـهـا النـاس " (ص100) . ويلخّص ابن المقفّع غرضه من الكتاب بقوله: " وأنـا واعـظك في أشيـاء من الأخـلاق اللّطيفـة ، والأمـور الغامضة التي لو حنّكتك سنّ كنت خليقا أن تعلمها وإن لم تخبر عنها . ولكنّي أحببت أن أقدّم اليك فيها قولا لتـروّض نفسك على محاسنها قبل أن تجري على عادة مساويها . فـإنّ الإنسان تبدو عليه في شبيبته المساوي وقد يغلب عليه ما يبهر إليـه منها''. وإنّ قارىء رسالتـي ابـن المقفـع يمكـن أن يتخيّـل المؤلف شيخا قد حنّكته التّجارب وحفرت في جبينه أخـاديد الحكمة إلاّ أنّ الملاحظ أنّ ابن المقفّع كتب رسالتيه وهو دون الخامسة والثلاثين من عمره ، فقد توفّي وهو في هذه السنّ مما يدلّ على حبّه للأدب الحكمي وميله إلى التّأليف في الأخلاق حتّى ولع بحِكَم الأقدمين يسجّلها بقلمه مسوّيا إيّاها في قالب خاص به . يتحدّث ابن المقفّع في رسالة الأدب الكبـير عن أصـول الأدب في الدّين ثم يصف مـا يجب على الـوالي أن يتحلّى به من أخلاق ، ويسلكه من أعمال تتّصل بحكمه مثل المشورة ، واعتبار رضى الناس خاصة أخيارهم ، واعتبار حرمة العالم ، والتمرّس بالعمّال واختبارهم ، والتأنّي في الأحكام سواء في الثّواب أو العقاب .

ويقدّم ابن المقفع نصائح ثمينة للوزير .

أمّا المحور الثاني وهو معاملة الصّديق وما ينبغي أن يتحلّى به من الشّيم مثل العلم والسخاء والابتعاد عن الأذى ، فيقدّم

لنا في نهاية الرّسالة وصفا للإنسان المثالي كما رآه مجسّدا في صاحب له، يقـــــول (ص 180) : «إنّـــــي مخبرك عن صاحب كان أعظم النـاس في عينــي، وكانَ رأس ما أعظمــه عنــدي صغـر الدنيــا في عينـه. كان خارجــا من سلطــان بطنــه، فلا يشتهي ما لا يجــــد، ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجا من سلطان خرجه .. ولا يستخف رأيا ولا بدنا . وكان خارجا من سلطان الجهالة ... وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذ القائلين ... وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط ولا يتشهى ولا يتشكّى ، ولا ينتقم من الولي ، ولا يغفل عن العدو ، ولا يخص نفسه دونه أخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوّته» الا ان اللاّفت في هذه الرّسالة هو موقفه من النّساء ، اذ نتبيّن في فقرات عديدة رأيه فيهن ، يقول : «اعلم أنّ من أوقع الأمور في الدّين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال ، وأضرّها بالعقل ، وأزراها للمروءة ، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنّساء.

ويـنــــدمج هذا الموقــــف في نظرتـــــه عمومـــــــا إلى المرأة خاصة في " كليلة ودمنة " حيث يصوّرهـا كتلة من غرائـز ملتهبة ، لا تشبـع من تغيير الأزواج (1) فهـو يرى " أنّ المـرأة خائنـة لزوجها أبدا ، غادرة في ظهره وغيبته ، وهي مدفوعة أبدا وراء غرائزها وشهوات جسـدها وملذّاتـهـا ، ومع تعـدّد ألوان

(1) د. ليلى حسن سعد الدين: مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة، ص 172.

المرأة الزوجة في كليلة ودمنة الا أنها تبقى أبدا في دائرة حسّها الشّهواني" (2) .

إلاّ أنّنا نلاحظ أنّ ابن المقفّع يصوّر في "كليلة ودمنـة" نوعين من النّساء ، المرأة الأرستقراطية ، وهي عنده ذكيّة فطنة عاقلة حازمة شريفة مثل أم الأسد في باب الفحص عن أمر دمنــة ، والمــرأة التي تنتمي إلى طبقــة التّجّــار والـصنّــاع والكادحين ، وهي امرأة في نظره عـاهر ، محتـالة ، مـاكرة ، تتلف العقل والمال والجسد .

ويبدو ابن المقفّع في رسـالة الأدب الكبـير معلّما للأخـلاق ، يحاول إصلاح الملــوك والــولاة وجميــع النــاس بتعليمهـــم الأصول العامة الهارة التي يراها ضرورية للتحصيل على السعادة ، ومن هذه الأصول الإيمان ، فيعتبره عنصرا أساسيا يقوم على اجتناب الكبائر التي تؤدّى بمقـترفيها إلى الكفـر ، إذ قيل إنّ الكبـائر ترمي بصاحبها إلى النار . ويرى ابن المقفع أنّ اجتناب الكبائر ضمان لحياة أخلاقية يعيش فيها النّاس في أمن وهناء ومسرة . ويذكر ابن المقفع أصولا عامة دنيـوية مـدارها عـلى المصلحة الفردية والمصلحة العامة ، منها الاقتصـاد في المأكـل والمشرب ،الصّلات الجنسية ، والسّعي في طلب الحـلال ، والاقدام في الحرب ، وعدم غمط الناس حقوقهم ، والتحفّظ في الكلام . ويلحّ ابن المقفّـع في دعوتـه العقلية عـلى الاعتدال مبيّنـا أنّ أحسن الأمور أوسطها .

---

(2) المرجع نفسه: ص 103 .

رسالة الصحابة

هذه الرسالة موجّهة إلى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور المتوفى سنة 158 هـ، يبلغه بعض الأخبار ويدعوه فيها إلى الاصلاح العام السياسي والاجتماعي والاقتصادى . يصف ابن المقفع في رسالته مشكلات معضلة في مجتمعه ، [illegible] في حلها ، فأخذ القلم ووجّه بكل شجاعة وجرأة ودون تقية أو خوف هذه الرسالة التي ستكون سببا من أسباب مصرعه .

فهي تقرير دقيق كامل عن الوضع السّياسي والإدارى والاجتماعي في عصره في عهد المنصور ، وفي آن واحد عرض لمعالجة مشاكله وحلّ معضلاته ، فقدّم اقتراحات عملية دقيقة تهمّ المؤسسات العسكرية والمالية والسياسية والرّجال والبلاد عامة .

تحتوى رسالة الصّحابة على نظريّة في السّياسة وأدب القيادة وتحسين الأحوال العامة . وتتضمّن آراء كاتبها في الحكم خاصة في تنظيم الدّواوين واختيار الولاة لتسيير الأقاليم . وتتّسم بالواقعية. وكان ابن المقفّع فيها شديدا على صحّابة الخليفة

العباسي يسلقهم ويهجوهم ويدافع عن قريش رغم أصله الفارسي ، كما يوصى خيرا بأهالي خراسان والعراق ، فهو ينافح عنهم ، ويكيل لهم الثّناء ، ويرجو التخفيف ممّا أصابهم من الإجحاف والظّلم ، وهو يطلب أمانا لجميع النّاس خاصّة منهم أهل الشّام الذين كانوا موالين للأمويين . وينتقد خاصة سياسة الدولة الاقتصادية ويطلب من الخليفة أن لا يولي أحدا من الجند شيئا من الخراج إذ أنّ ولايتهم له مفسدة لهم " لأنّهم أهل دالة ودعوى بلاء" . وهو يرجو تهذيبهم وتعليمهم وتفقيههم في السنة ، مع مراقبتهم واتباع أخبارهم . وينتقد ابن المقفّع من جهة أخرى ما اتسم به عصره من ترف وإسراف في اللّباس والتّسري والعطور (ص 201، فهو يشهّر بالوضع الاجتماعي العام ، ويحذر الخليفة من صحبة الأوغاد إذ بهم يفسد أمر الخلافة ويكون شينها .

وهو يسلق بجلاء ومباشرة بعض من في البلاط العباسي من الوجوه التي ينفر الناس من ذكر أسمائهم (ص214) ، ويشير إلى أنّ منهم من لا ينتمي إلى حسب ، ومنهم المسخوط الرّأي، المشهور بالفجور في أهل مصره، كان صانعا بسيطا بينما ترى أبناء المهاجرين والأنصار لا يلتفت إليهم الخليفة (ص 215).

وأخيرا فهو يوصي خيرا بابناء الجزيرة ، من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها ، ويدعو إلى اختيار الولاة من أهاليها .

كليلة ودمنة

كان لكتاب كليلة ودمنة منذ تأليفه أو ترجمته إلى العـربية تأثيره الواسع في الأدب العـربي . لقد حـاول بعض الكتاب تقليده والمشي على خطاه مثل سهل بن هارون (ت215) ، فألف كتابي " النمر والثعلب " و" ثعلة وعفرة " ولكنه لم يصل إلى شأو ابـن المقفـع (1). كما حاول أحمد بن محمـد بن عربشاه ارتسام معالم " كليلة ودمنة " فألف كتـاب " فاكهـة الخلـفـاء ومفاكهـة الظرفـاء " وقد أشار في مقدمته إلى كتاب ابن المقفع بقوله: " ومن جملة ما ألّف في ذلك ، واشتهر فيها هنالك ، وفاق على نظائره ، بمخبره ، ومنظره ، وحـاز فنون الفـطنة ، " كليلة ودمنة " (2) .

ومنهم من أراد معارضته مثل أبي عبد الله محمد اليمني ،

---

(1) قال في مقدمة كتابه: " اني رأيت أن أصنع لك كتابا في الأدب والبلاغة والترسيل والحروب والحيل والامثال والعالم والجاهل وان أشرب ذلك بشيء من المواعظ وضروب من الحكم "

(2) ص 5

فألف كتاب " مضاهاة أمثال كليلة ودمنة بما أشبهها من أشعار العرب ''بعد أن شاهد'' كلف أهل عصره بكتاب كليلة ودمنة ومواظبتهم على قراءته والاحتيال لابنائهم على حفظه ودرسه بما موّهوا من الصّور وأجروه مجرى السّمر ليلهو به فتيانهم ويتقبّله صبيانهم " (3) ، فعارض بعض الحكم الواردة في الكتاب بأشعار قديمة عربية . والمعتقد أنه صنعها بنفسه كما أشار إلى ذلك محقّق الكتاب في مقدمته . ومنهم من نظمه شعرا مثل أبي سهل الفضل بن نوبخت الفارسي وأبان بن عبد الحميد اللاّحقي بطلب من البرامكة وأول نظمه:

هذا كتاب أدب ومحنة   وهو الّذي يدعى كليلة ودمنة
فيه احتيالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند

كما نظمه علي بن داود كاتب زبيدة زوج الخليفة الرشيد ، وبشر بن المعتمر وابن الهبارية وسمّى نظمه " نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة " كما نظمه ابن مماتي المصرى (ت606) .

أما الطّبعات فقد تعددت ، وأقدمها طبعة بولاق سنوات 1249 ، 1297 ، 1303 ، 1351 . وبين أيدينا طبعة 1303 وجاءت على هامش كتاب " فاكهة الخلفاء " . لابن عربشاه ، وقدّمها الناشر بمقدمة أشار فيها إلى أنّه تمّ الاعتماد خاصة على طبعة سلفستر دي ساسي بباريس سنة 1816 . ثم توالت الطبعات بمصر والشام ، نذكر منها خاصة طبعات خليل

---

(3) ص 7

اليازجي وأحمد حسن طبارة وشيخو (بالشام) وطبعة عبد الوهاب عزّام بتقديم طه حسين سنة 1941 عن دار المعارف بمصر وأعيد طبعها عن نفس الدار سنة 1980 .

أمّا في تونس فقد نشر ما لا يقلّ عن عشر طبعات عن دور للنشر مختلفة منها مؤسسات ابن عبد الله للنشر ودار بوسلامة للنشر ودار المعارف بسوسة ودار سحنون للنشر ودار المنشورات الجامعية بالاضافة إلى المنتخبات المدرسية العديدة ، إذ ما فتىء كتاب "كليلة ودمنة" يعدّ في البرامج المدرسية والجامعية التونسية . وقد وضع الكتاب في الأصل باللغة السنكسترية الهندية ثم نقل إلى الفهلوية فالسّريانية . وعن الفهلوية ترجم آبن المقفّع النصّ ملائما بين المضمون وبين الثّقافة الاسلامية ، ملغيا بعض المعتقدات البرهمية ، مراعيا في ذلك القارىء العربي المسلم .

وزاد فيه ستة أبواب وهي :

ـ1ـ مقدّمة الكتاب على لسان بهنود بن سحوان المعروف بعلي ين الشّاه الفارسي .
ـ2ـ باب عرض الكتاب لابن المقفّع .
ـ3ـ باب الفحص عن أمر دمنة .
ـ4ـ باب النّاسك والضّيف .
ـ5ـ باب مالك الحزين والبطّة .
ـ6ـ باب الحمامة والثّعلب ومالك الحزين .

وقد فقد الأصل الهندى والفهلوى ولم تبق إلاّ التّرجمة العربية

وبعض الأبواب في الترجمة السّريانية القديمة . وعن الأصل العربي نقل الكتاب إلى اللّغات الأخرى منها الفارسية والسريانية مرة أخرى ، واليونانية واللاتينية والعبرية والاسبانية والايطالية والروسية والتركية والألمانية والانقليزية والهولاندية والدنماركية والفرنسية . وقد ظهرت الطبعة الفرنسية سنة 1644 بقلم داود شاهد الاصبهاني بعنوان: "كتاب الأنوار في سيرة الملوك أنشأه الحكيم بلباى الهندى". وظهرت طبعة أخرى سنة 1666 ، واطلع الشاعر الفرنسي "لافونتان" على هاتين الطّبعتين واستوحاهما لكتابة أمثاله الشعرية الشهيرة . وصدرت أخيرا ترجمتان أخريان إلى الفرنسية صدرت الأولى سنة 1957 ، بقلم أندرى ميكال والثانية سنة 1985 بعنوان: " السلطة والمثقّفون أو مغامرات كليلة ودمنة ، بعناية روني خوام .

وخصّص روني خوام في مقدّمته للترجمة الفرنسية صفحات قام فيها بالمقارنة بين بعض فقرات من ترجمة ابن المقفع وما يقابلها من التّرجمة السّريانية القديمة، ولاحظ وجود اضافات مهمّة أتى بهاابن المقفّع في سياق المعنى معلّقا أو شارحا أو مطنبا ، وأحياناً يغيّر المعنى تغييرا كاملا. وأحيانا أخرى يثري النصّ بالاعتماد على ثقافته العربية من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشّعر العربي . وهو إذ يغيّر المعنى فتارة في اتجاه فكرى شخصي يقوم على نظرة اخلاقية تنتقم على رجال السياسة خبثهم ومكرهم وفسادهم . وفي كثير

من المرات يوجز الأصل ويعوّض الاستشهادات الفارسية بأخرى عربية . وقد وجد خوام في أبيات شعرية لشعراء عرب معاصرين لابن المقفع أو سابقين له بعض المعاني التي اقتبسها منهم ، وهو يتعمّق في الفكرة وكثيرا ما يستقي معانيه من الأدب العربي القديم، وقد ذكر خوام عددا من هؤلاء الشعراء الذين أخذ عنهم. وكما استنتجت الدكتورة ليلى حسن سعد الدين ، فإنّه " قد برز في قصص كليلة ودمنة الأثر الإسلامي حتى يكاد يغطيها ، وهذا الأثر يتعلّق في المقام الأول بالعقيدة من حيث تبحث في القضية الأساسية التي كانت مثار جدل وإنكار من قبل الأقوام الذين أرسل اليهم أنبياء اللّه ورسله ، تلك هي قضية البعث والحساب والجزاء والعقاب فعالجت القصص هذه القضية الايمانية في خطوط بارزة أكّد عليها ابن المقفّع" (1) .

الا أننا نلاحظ إلى جانب المؤثّرات العربية الإسلامية وجود مؤثّرات هندية وفارسية ويونانية وخاصة بعض آثار لماني ومزدك ولكنها آثار قليلة خفية ، وقد تداخلت هذه المؤثرات فكان كتاب ''كليلة ودمنة'' مرآة لتزواج الثقافات وتمازج الحضارات واحتكاك الأفكار والعقائد والمذاهب.

مقدمات الكتاب:

قدّم ابن المقفع الكتاب بفصول تصوّر مسالك النصّ من

(1) مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة: ص 60.

الهندية إلى الفارسية فالعربية ، لكنّه لا يروي كيف فكّر في ترجمته ولم يقدّم له مقدّمة صريحة باسمه حتى باب عرض الكتاب فقد قدمه بعنوان ترجمة .

يبتدىء الكتاب بمقدّمة منسوبة لعلي بن الشاه الفارسي يفسّر فيها أسباب ترجمة الكتاب وما لقيه المترجم من صعوبات مادية . وتلي هذه المقدمة ثلاث مقدمات أخرى ، وهي باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند وعرض الكتاب بقلم ابن المقفع ، وبرزويه ترجمة برزجمهر وزير الملك الفارسي أنوشروان .

إلّا أنّ مقدّمة علي بن الشّاه الفارسي ــ ولعلّه اسم مستعار لابن المقفّع ــ هامة ، إذ ترسم أهداف المؤلف وتبين وظيفة المفكّر العالم إزاء السّلطان ، وواجباته نحو مجتمعه ، منها أنّه يضطلع بمسؤوليته كاملة ، ويتحدّى الأخطار المحدقة به فيجازف بحريته وحتّى بحياته لينصح السّلطان ، ويقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ونجد في هذه المقدمة سبب تأليف قصص كليلة ودمنة ، فقد كتب أصلها بيدبا الحكيم البرهمي الهندي لدبشليم أحد ملوك الهند ، وجعل أبطالها من الحيوان صيانة لغرضها عن العوام وتنزيها للحكمة وسموّا بها ليفوز بها من يجهد نفسه ويكدّ ذهنه فيفكرّ فيها ليعمل بها . والحقيقة أنّ الإنسان هو بطل هذه القصص الحقيقي ، إذ أنّ النّاس قد انقلبوا فيها إلى حيوانات تحت اسماء مختلفة ، فتارة آساد ، وآخرى أرانب ، ومرات ثيران ، وغيرها . ولكنّهم يبقون دائما من البشر ،

يذهبون ضحايا للكذب والدّسيسة أو القمع ، إنّهم النّاس يعيشون في هذه القصص تحت ستائر تصوّرهم حيوانات بفضائلهم ونقائصهم ، من خلالَ أحاديثهم وأوصافهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم . والمطلوب من القارىء في هذه المقدّمة أن يلزم قراءة " كليلة ودمنة " ويحسن النّظر فيه ، ويغوص في أغواره لتحصل له الفائدة كاملة إلى جانب المتعة المؤكّدة . ويغشى هذا الكتاب ثوب الأسطورة، ولم يصل الكتاب إلى فارس الا بعد الجهد والتحيّل والحرص الشديد على الفوز به لقيمته السياسيّة والأخلاقية ، فقد بحث كسرى أنوشروان ملك الفرس عنه وبعث طبيبه الخاص برزويه ليأتي له بنسخة منه ، وبذل برزويه كلّ ما في وسعه من ذكاء وكلّ ما في جرابه من مال للوصول إلى استنساخه سرّا من خزانة الملك ليلا مع كتب أخرى . والطّريف هو حوار بيدبا مع تلامذته وتعاليمه لهم ، ومفادها أنّ السّلطان إذا طغى وبغى وساءت سيرته مع الرّعية تحتّمت نصيحته ، ووجب ردّه إلى فعل الخير ، لا التّخلّي عن هذا الدور أو الهجرة أو التزهّد والعيش في برج عاجيّ ، ويعتبر بيدبا أنّ التنسّك في الغابات أو الصّحاري وعدم تحمّل المسؤولية الفكرية والاجتماعية من قبيل الغدر والخيانة، فيقول : ''إنّ مجاورة السّبع والكلب والحيّة والثور على طيب الوطن ونضارة العيش لغدر بالنّفس'' (ص 75).

ورغم أنّ الطّلبة خوّفوه من نتائج جرأته ونصيحته للسلطان فقد صحّت عزيمته على لقاء الملك الظالم وردّه عن طغيانه ،

قالوا له: "من دخل على الأسد في غابته لم يأمن من وثبته . . . ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته وإنّا نخاف عليك من سورته ومبادرته بسوء اذا لقيته بغير ما يجب" (ص99) .

وقد صدق قولهم فقد غضب عليه السلطان حينما بادر بمصارحته ووعظه ، وكاد يعصف به رغم أنّه نصحه بكل أدب ولطف ولباقة ، وقدّم له بمقدّمة طويلة في سير الملوك . وحسن الآداب والشيم ، فأمر بسجنه بل بقتله وصلبه ثم تراجع وأمر بحبسه وتقييده، وهرب تلامذته متفرّقين في البلاد كيلا يقبض عليهم ويشملهم القمع ، إلاّ أنه تحدث المعجزة ، فيحتاج السّلطان إلى فكر بيدبا فيعفو عنه ويحمّله مسؤولية سياسية ، ويكلّفه بتأليف كتاب "كليلة ودمنة" . والمغزى الهام لهذه المقدّمة أنّ الملوك وأصحاب السّلطة لايفيئون من سوراتهم إذا حادوا عن الطريق السّويّ إلاّ بمواعظ العلماء وأدب الحكماء ، والواجب عليهم أن يتّعظوا بمواعظهم كما أنّ الواجب على العلماء يقتضي تقويم الملوك بألسنتهم (ص66) ، كيف لا وللعلماء مكانتهم الاجتماعية ومزيّتهم على المجتمع .

إنّ كتابة مقدّمة هذا الكتاب بعد ترجمته إلى العربية وإضافة فصول أخرى له بالفصحى ليدل على الحرّية الفكرية التى كان يتمتّع بهاالأدباء والمفكرون في العصر العباسي أوّل ابتدائه ، فابن المقفّع يتناول بالكتابة قضايا فكرية وسياسية مهّمة

صراحة ، ومن خلال الأمثال والقصص. وهو يعبر عن آرائه بكل صدق ووفاء لمبادئه الأخلاقيّة .

ومن الأمثال التي يأتي بها مثَل القبّرة والفيل ، ولقد استطاعت القبّرة وهي نوع من العصافير الضّعيفة ، صغيرة الحجم ، أن تنتقم من الفيل الطاغي الظّالم وأن تؤدّى به إلى مصرعه ، وقد آزرتها العصافير والضفادع لتقوده إلى نهايته الفاجعة ، بعد أن فقأت عينيه وقالت له القبرة قبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة: أيّها الطاغي المغترّ بقوّته ، المحتقر لأمري ، كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثّتي عند عِظم جثّتك وصغر همتك؟" (ص78) .

وتشير هذه الصفحات من المقدمة إلى تحليق الكاتب ـ وهو ابن المقفّع ـ في الفضاء الفكرى السامي ، إذ يرسل دعوة حارةإلى عدم التلهّي بالقشور دون اللبّ ، والأصداف دون الجوهر ، وعدم الاكتفاء بالمظاهر الخادعة ، والتفكير في مغازى الأمثال والقصص ، والغوص في جمل الكتاب وفقراته. وقد صرّح المؤلّف أنّ لكليلة ودمنة أربعة أغراض وهي:

ـ1ـ استمالة القلوب لقراءة هذه القصص بما فيها من محاورات ومفاجآت فيتسنّى نشر هذا الكتاب لدى كافة الفئات من النّاس ، وتتوفّر المتعة الفنّية ، ويتهذّب الذوق ، وينمو الخيال ، ويتكوّن العقل .

ـ2ـ تشخيص الأبطال من عالم الحيوان ، بهائم وطيرا ، لجذب نفوس الملوك وإغراء الخاصة ، مما يضفي صبغة رمزية على القصص .

-3- الاكثار من نسخ الكتاب ليستفيد الخطّاطون والمصـوّرون ويكون الكتاب خالدا على مدى الدهر .

-4- أما الغرض الرابع فهو فكريّ فلسفيّ ، يتعلّق باستخراج المعـاني البعيدة ، واكتشـاف الجواهـر والدرر من خـلال هذا الاسلوب القصصي الذي يؤطر العبر والأفكار والمغازي . وقد نجح كتاب " كليلة ودمنة " في التّعبير عن كثـير من الأفكار الفلسفيـة والسّياسيـة والأخلاقيـة ، واستطاع ان يجعـل القراء يهتمّون به على مختلف مستويـاتهم ، وكلّ واجـد فيه حـاجته ورغبته . ويحتوى هذا الكتاب على عالم قائم بذاته ، أفراده من الحيوان ولكن ألسنتها قد استعارتهامن دنيا البشر ومؤسسـاتهم السّيـاسية والتجـارية والاجتـماعية وانتـماءاتهم العقلية والـدينية والروحية .

ولعلّه يحسن أن نلاحظ أن هذا الكتاب رسم منذ تأليفه بالحروف والصـور كوسـائل لـلإيضاح ، وهـذه الامثال قـابلة للتصوير بالأشكال والالوان ، وقابلة أيضا للتمثيل بـالحركـات والاشارات. ويقوم الكتاب على أربعـة عشر بابـا ، كل بـاب مستقـل عن غيره إلا بـابا الأسـد والثّور والفحص عن أمـر دمنة ، فهما متكاملان ، يقول ابن المقفّع: " في كل باب مسألة والجواب عليها." وفيه " ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه وآخرته وأولاه " (ص102). ويعـــرّف الكتاب مجمـلا بقولـه: " أمّا الكتاب فجمع حكمة ولهوا ، فاختاره الحكماء لحكمته والسّفهاء

للهـوه" (ص126) . ومضى يشرح المطلوب من القـراء ، وحوصله في ست نقاط:

-1- إعمال الرويّة والفكر في فصـول الكتاب وعـدم الاكتفاء بالخطوط والصور والنقوش .

-2- ضرورة العمل بالمبادىء الأخلاقية التي يدعو اليها ، خاصة قـرن العلم بالعمـل ، " فالعلم لا يتمّ إلاّ بـالعمـل ، فهـو كالشجرة والعمل به كالثمرة . وإنّما صاحب العلم يقوم بالعمل لـينتفـع بـه وإن لم يـستعـمـل مـا يـعلم لا يـسمّـى عالما" (ص131) .

-3- البدء بإصلاح النّفس قبل الغير ،"وعلى العالم أن يبتدىء بنفسه ويؤدّبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره ونفعه به وحرمان نفسه منه ويكون كالعين التي يشرب النّاس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة ، وكدودة القزّ التي تحكم صنعته ولا تنتفع به" (ص132 ــ 133) .

-4- أن لا يبالغ في طلب الدّنيا وأن لا يؤثرها على الآخرة . وهذه الرغبة ذات صبغة إسلامية قرآنية .

-5- أن يلازم الانسان الحذر ويعمل لإصلاح المعاش وطلب الكسب الطّيب الحلال وأن يصلح ما بينه وبين النّاس ليكسب الذّكر الجميل .

-6- أن يصدّق الإنسان بالقضاء والقدر ، ويأخـذ بالحـزم في الأمور ، ويحب للنّاس مـا يحبّ لنفسه ولا يلتمس صـلاحها بفساد غيره (ص137) .

باب الأسد والثور:

الموضوع: متحابّان يقطع بينهما حسود كذوب محتال ويحملهما على العداوة والبغضاء، فذهب أحدهما ـ وهوالثّور ـ ضحيّة للإفك والحسد رغم قوّته وعظم جثته، وذهب الآخر ـ وهو الأسد ـ فريسةلندمه ـ ولات ينفع الندم ـ حينما بطش بصديقه الثور. أمّاالحسود فهو دمنة وهو من أبناء آوى، ذو خبث ودهاء وحيلة ومكر، وكان يخشى من الثورعلى مكانته في البلاط ويغار منه، فدبّر له مكيدة كي يطيح به، ونجح في ذلك رغم نصائح كليلة أخيه وتحذيراته. ويبدو دمنة قد أعماه الطموح إذ طمع في منصب لايستحقّه، وأراد أن يصلْ إلى تحقيق حُلمه بالكذب والكيد. وكان له منطق خاص وأخلاق وضيعة لا تخضع لأيّ قانون يمليه الضمير.

أما كليلة فهو متعقّل رصين يتريّث في إبداء آرائه، ويقنع بمنزلته وما فيها من منافع مكتفيا بها، وينبّه دمنة إلى ماسيتعرّض اليه من مخاطر، ويسدى إليه عديد النّصائح خاصة الالتزام بحدود المنزلة. وكليلة يعرف أخلاق الملوك، وسرّ السياسة، لذلك يحذّر دمنة من صحبة السلطان، ويذكّر بأن الحكماء شبّهوا السّلطان بالجبل الوعر. يقول لدمنة: " إنّي أحذّرك صحبة السلطان، فإنّ صحبته خطر عظيم، وقد قالت العلماء: إنّ أمورا ثلاثة لا يجترىء عليهن إلاّ أهوج، ولا يسلم منهنّ الا القليل، وهي صحبة السلطان وائتمان

النساء على الأسرار وشرب السّم للتّجربة" (ص180) .

لكن دمنة شرس ، شرّير كالحيّة الرّقطاء ، اعتمد وسيلة مكيافلية أدّت إلى مقتل الثور . وقد رسم خطّة للتآمر ، ولم يصدّق الأسد في الأول خيانة الثّور المزعومة خاصة وأنّه كان يقرّبه ويكرمه ويحقق رغباته ، لكنّ دمنة أفرط في حبك الدسائس ، مهوّلا الأمر ، موجّها السّلطان نحو التسرّع والبطش بالثّور . وقد أعان على إنجاح خطّة دمنة أنّ السلطان كان منفردا برأيه ، لا يأخذ برأي أحد من أصحابه ، فأنطلت عليه الحيلة وأسرع بقتل الثّور . ويصوّر ابن المقفّع تأثير تسرّع الأسد في إزهاق روح الثّور بدون استيضاح للأمر ، فاذا بالأسد تفترسه الهموم والاحزان ، وإذا بضميره يستفيق لقتله أعزّ صديق لديه بدون ذنب موجب للإعدام ، و" من أعظم الخطايا قتل البرىء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة " (ص207) ناهيك وأنّ الأسد كان ينتفع بعقل صديقه ورأيه وأدبه . وفي الواقع إنّ موضوع هذا الباب هو صحبة السّلطان وبيان خطرها في ظرف كان الملوك فيه لا يتقيّدون بأي قيد شرعي أو عقلي ، يسيرون حسب أهوائهم ، ويعتبرون الرّعية ملكا لهم يتصرّفون فيها كما يتصرّفون في أشيائهم الخاصة . فالغاية من هذا الفصل مزدوجة:

-1- تحذير السّلطان من وزراء السوء إذ " أنّ السّلطان إذا كان صالحا ووزراؤه وزراء سوء منعوا خيره فلا يقدر أحد أن يدنو منه ، ومثله في ذلك مثل الماء الطيّب الذي فيه التماسيح

لا يقدر أحد أن يتناوله وإن كان إلى الماء محتاجا" (ص235 ـ236) . وفي هذا السّياق يحذّر ابن المقفّع السّلطان من عاقبة ما يجرى في بلاطه من العداوات كيلا يتسرع في الحكم إلّا بعد التثبّت ومعرفة الحقيقة بكامل جوانبها ومعرفة الدوافع النّفسية .

ـ2ـ تحذير المقرّبين من السّلطان من سوء أثر ما يأتيه بعضهم من شرور وآثام ويرتكبه من أخطاء وجرائم . وباب الأسد والثور ، في الأخير ، هو دراسة لأخلاق السلطان وبيان للشّروط التي ينبغى أن تتوفّر لمن يطمح في صحبة الملوك ، منها التمرّس بالسّياسة والتخلّق بأخلاق الصّحبة لهم ، ومعرفة فنّ خدمتهم . وخلال صفحات عديدة من هذا الباب يدور حوار بين كليلة ودمنة عن صحبة السّلطان وخطرها ، وهو حوار بين فكرين ، لكل منهما طريقته ونظرياته وآراؤه في السياسة والأخلاق والمجتمع . إنّ لدمنة رغبة عميقة صريحة في المجد السّياسي ، فهو يتوق لتحقيق آماله في الحياة على حساب غيره "ليسرّ الصديق ويكبت العدو" (ص176) ، فهو يرنو إلى منصب اجتماعي سام ولكن أنّى له أن يصل إلى هذا المنصب بأخلاق رذيلة .

وهكذا تبينّ القصة أنّ الخطر يمكن أن يتأتّى للوزراء من الحاشية نفسها ، ومن الحسّاد خاصة ، فالوزير البرىء ، النصوح الراشد ، يمكن أن يذهب ضحية للدّس والتآمر . يقول ابن المقفّع على لسان الثور: "إنّ مصاحبة السّلطان

خطرة وإن صوحب بالسلامة والثّقة والمودّة وحسن الصحبة".

الفحص عن أمر دمنة:

من المتفق عليه أنّ هذا الباب من اضافات ابن المقفّع لكليلة ودمنة. وقد حرص ابن المقفّع على معاقبة دمنة ونصب محكمة لإدانته والفحص عن جريمته. قد أراد المؤلف أن يعظ النّاس، فلم يرض أن يفوز دمنة وأن يكون الرّابح، فيسود الشرّ وينهزم الخير، فجعل الأسد يتفطّن إلى سوء عمل دمنة ومكيدته فقتله شرّ قتلة بعد أن عقد له محكمة حاكمته. لقد تفطّن النّمر صاحب السّلطان إلى الدّسيسة صدفة عندما بلغ سمعه حوار دار بين كليلة ودمنة يؤنّب فيه الاول الثاني ويستصغره ويعلمه أنّه قرر قطيعته والبعد عنه إذ أنّه ليس جديرا بصداقته وبات غير أهل للثّقة والودّ. وقد ألقى عليه كليلة درسا أخلاقيا ممتازا بيّن فيه أنّ المحتال لابدّ أن يجد جزاء فعله.

ويريد ابن المقفّع من خلال هذا الفصل أن يثبت أنّ الشرّير يجب أن يعاقب في الدنيا قبل الآخرة، وأنّ اللّه كاشفه قبل أن ينعم بنتائج جريرته، فيقدّم صفحات مهّمة عن القضاء ودور القاضي في الفحص عن المذنب، فكأنّنا أمام محاكمة عصرية، يطلب المتّهم ـ وهو هنا دمنة ـ المدافعة عن نفسه ويبينّ الحجج أمام المحكمة. وكأنّ ابن المقفّع ينفس عن

بعض ما يجده ممّن نكّدوا حياته واتّهموه بالزّندقة وبغيرها ، وكأنّ هذا الكلام موجّه إلى بعض أعدائه ، فنفهم أنّه يتوجّه بالحديث إلى شخص معيّن على لسان دمنة حينما يخاطب سيّد الخنازير فيقول له: أيّها الأعرج المكسور" (ص263) ، وهذه المناداة تصوّر لنا شخصا معيّنا لا ندرى من هو .

وتبدو هذه المحاكمة اسلامية ، يحكم القاضي فيها حسب ما جاءت به الشّريعة المحمّدية ، اذ هو يحقّق قبل أن يصدر حكمه في القضيّة ، ويسأل المتّهم ، ولا يحاسبه فقط بما قيل عنه واتّهم به بل هو يبحث في شأن دمنة ويحاول اقناعه ليعترف بذنوبه وأعماله النكراء .

ويعجّ هذا الفصل بالشّخصيات ، فقد أضاف المؤلّف شخصيات أخرى مثل أمّ الأسد وعمّه جواس ، وسيّد الخنازير وهو طبّاخ السّلطان والفهد المحبوس . ولئن يسرد ابن المقفّع الوقائع بسرعة وتركيز فإنّه في الأخير يحرّر صفحات نظرية عن القضاء من خلال حوار بين القاضي ودمنة . ويتمثّل العمل القصصي في هذين البابين المترابطين في الحوار المتعدّد بين أطراف مختلفة (شتربة ودمنة ، كليلة ودمنة ، الأسد وبعض جلسائه الخ . .) بالإضافة إلى عناصر التشويق والمفاجآت والسّرد وحبك العمل القصصي وتصوير الشخصيات بكلّ سماتها وخصائصها .

باب الحمامة المطوقة:

يقوم هذا الباب على فكرة تواصل إخوان الصّفاء وتعاضدهم وائتلافهم وتبادلهم المحبة . ويدعو المؤلف فيه إلى المواساة والتعاون على البرّ والخير . ويؤيّد دعوته بالإتيان بحكم عديدة ومعان متصلة بهذا الغرض منها أنّ العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا وأنّ الإخوان هم المواسون عندما ينوب المكروه وأنّ المودّة بين الصالحين سريعة الاتصال بطيئة الانقطاع .
ومغزى هذا الفصل يمكن أن يلخّص في هذه السّطور التالية:
"من لاإخوان له لا أهل له ومن لا ولد له لاذكرله ، ومن لامال له لاعقل له ولا دنيا ولا آخرة لأنّ الرّجل اذا افتقر قطعه قرائبه وإخوانه . " .

ويتميّز هذا الباب بنزعة واقعية ، إذ يلاحظ ابن المقفّع أنّ أهم قيمة في هذا المجتمع الجديد هو المال اذ به يحصل الإخوان ويسعد الأولاد . والمال يكسب العقل والمجد والآخرة كذلك . فالفقر سبب البلايا ، يغيّر الأخلاق والطّباع ويفسد الأحوال في الدّنيا والآخرة . كأنّ الكاتب الفيلسوف يثور على الوضع الاقتصادي المقيت في عصره ، وهو إذ يذمّ الفقر ويبيّن أثره في نفوس النّاس إنّما يمجّد الغنى والثروة ويسر ذات اليد . يقول: "وجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالبا إلى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة . . . وليس من خلّة هي للغنيّ مدح إلّا وهي للفقير ذمّ ، فإن كان شجاعا قيل أهوج ، وإن كان جوادا سمّي مبذّرا ، وإن كان حليما سمّي ضعيفا ، وإن كان

وقورا سمّي بليدا . . . فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة ولا سيّما مسألة الأشِحّاء واللّئام " . ويعرّف ابن المقفع بدور المال في المجتمع بقوله الجازم: « ما الاخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلاّ بالمال ، ووجدت من لِامال له إذا أراد أمرا قعد به العدم عمّا يريده كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء لا يمرّ إلى نهر ولا يجري إلى مكان فتشربه أرضه » . أما القصّة التي يقوم عليها هذا الفصل فهي أنّ حمامة مطوقة وقعت في الشرك هي وأخواتها فأنقذها جرذ كان صديقها . وانضم إلى هذه الجماعة غراب وسلحفاة وغزالة ، تعاضد جميعها على فعل الخير ودفع الخطر .

وفي الفصل أبعاد رمزية سياسية واجتماعية وأخلاقية . تقول الدكتورة ليلى حسن سعد الدين في كتابها " مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة ": الحمامة المطوقة واحدة من حيوان كليلة ودمنة ، وهي فيها ترمز إلى التعقّل والرزانة والوفاء . . . وهي في كليلة ودمنة السّيدة المطاعة والرئيسة الوفيّة للحمام ، وبها يقتدي رفاقها . . . وتوحي الحمامة هنا بالرأس المدبّر لأفراد الفئات القليلة المستضعفة في كلّ بيئة يتولّى أمرها ، ويدبّر قيادها في خضمّ الحياة المتصارعة ، فهم يدينون له بالولاء والطّاعة كما هو قائم على شؤونهم وراحتهم بالحكمة والسّياسة والتعقل والمداراة والمداهنة . " (ص64 ــ 65) .

باب البوم والغربان

يتناول هذا الباب موضوع مواجهة العدو وكيف تكون ،

أبالقوة أم بالمكر والخداع أم بالهروب والانعزل أم بالتماس الصلح؟ كما يتناول موضوع القوّة أين تكمن . ويجيب المؤلّف عن هذه المسألة من خلال مثل الناسك والفأرة التي تنقلب إلى إمرأة ، وتبحث عن زوج قويّ ، وقد عرف النّاسك بعد البحث والتجربة أنّ القوّة الحقيقية لا تكمن في الشّمس ولا في السّحاب أو الرّيح أو الجبل إنّما القوّة في الانسان ذاته وآدميته وواقعه البسيط المعيش . ونلاحظ أن جميع هذه الامثال التي يوردها ابن المقفع ذات دلالات ومعان أخلاقية مدارها أنّه ينبغي على الانسان أن لا يتكبّر على أخيه ، ولا يخدعه لأنّه في الواقع لايخادع إلاّ نفسه ، ولا يتكبّر إلاّ على آدميته .

الأسلوب في كليلة ودمنة:

صاغ ابن المقفّع أسلوبه ببيان فائق يقوم على صيغ مختلفة وتعابير متنوّعة ، وجمل تتراوح بين قصيرة وطويلة ، ولهجة انشائية تنمّ على ما وصل إليه النّثر العربي على أيدي ابن المقفّع من نصاعة وإشراق وانسجام ، وتفنّن ودقة ووضوح . فلابن المقفّع قدرة ومهارة على تنويع أسلوبه بالتعجّب والتّساؤل والنّفي والإيجاب واستعمال شتى الضّمائر وصيغ الحوار . فالكاتب يجيد السّرد ويمهر في التّصوير والتّشخيص والتّعبير عن أدقّ المعاني وأعقدها ، فيقرّب إلى ذهن القارىء مفاهيم الحكمة والفلسفة والعقائد المختلفة في أسلوب هو السّهل الممتنع .

ويمكن أن نذكر أنّ أهمّ ميزات أسلوبه الوضوح في المعاني ، والشفافية في المفاهيم ، وتنوّع الصّيغ وتعددها مع استعمال الجرس الموسيقي في مفاصل فقراته . ولا غريب ولاحوشي ، ولا تعقيد ولا إغراب انّما هو نسق سلس يجرى مع الطّبع بدون تكلف للسّجع وسائر الأساليب البديعية . يقول خليل مردم في كتابه عن ابن المقفّع : "يقصد إلى المعنى بعناية بالغة فاذا تمّ له تصوّره قدر له من اللفظ ثوبا ليس بالفضفاض ولا بالضّيق مع زهد في السّجع إلاّ ما جاء عفوا من غير تعمّل ، فأسلوبه أسلوب المساواة بين اللّفظ والمعنى على أنّ في كلامه كثيرا من الإيجاز المعجز الذى اختصّ به العرب الخلص واستبدّت به بلاغة العرب خاصة من دون جميع اللّغات" (ص64 ـ 66) .

المصادر والمراجع

ــ الأصبهاني (أبو الفرج): * الأغاني ، ط . بولاق ، صورة عن دار التوجيه اللبناني، في 11 مجلدا .

ــ أمين (أحمد): * ضحى الاسلام: ج 1،

ــ بكار (توفيق): * المنهج الجدلي في تحليل القصص ، جدلية الحكمة والسلطان ، مجلة الحياة الثقافية ، عدد 30 ، سنة 1984 .

ــ حسين (طه): * من حديث الشعر والنثر، دار المعارف ، مصر 1961 .

ــ الخرساني (محمد غفراني): * عبد الله بن المقفّع ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مصر 1965 .

ــ ابن خلّكان: * وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، 8 اجزاء ، دار الثقافة ، بيروت ، 1969 ــ 1972 .

ــ خليفة (حاجي): * كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون ، جزآن ، نسخة مصورة ، بغداد 1941 .

ــ السامرائي (ابراهيم): * من معجم عبد الله بن المقفع ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1974 .

ـ سعد الدين (ليلى حسن): * مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة ، عمان ، الأردن ، 1984 .

ـ الطباع (عمر): * كليلة ودمنة ، دراسة ونصوص ، دار المفيد ، لبنان 1972

ـ العاني (فاضل زعين): * سياسة أبي جعفر المنصور الداخلية والخارجية ، دار الرشيد ، بغداد 1981 .

ـ ضيف (شوقي): * الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي ، ط 2 ، مكتبة الأندلس ، بيروت 1956 .

ـ غريب (جورج): عبد الله بن المقفّع ، سلسلة الموسوع في الأدب العربي ، دار الثقافة ، بيروت، ط 3 ، 1975 .

ـ كرد علي (محمد): * أمراء البيان ، ج 1 ، القاهرة 1937 .
رسائل البلغاء ، مصر 1913 .

ـ مبارك (زكي): * النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، جزآن ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د . ت . .

ـ مردم بك (خليل): * ابن المقفّع ، سلسلة أئمة الأدب ، دمشق 1930 .

ـ ابن المقفّع: * كليلة ودمنة: نشرة محمد حسن نائل المرصفي . الطبعة الخامسة ، د . ت . وللكتاب نشرة بتونس عن دار سحنون ، 1988 .

* كليلة ودمنة: نشرة عبد الوهاب عزام ، دار المعارف مصر ، ط 1 ، 1941 ، ط 2 ، 1980 .

* الأدب الصغير والكبير ورسالة الصحابة ونتف أخرى ،

في "رسائل البلغاء" جمع محمد كرد علي، مصر 1913 .
* الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة
نشرة يوسف أبو حلقة، مكتبة البيان، بيروت، ط 3، 1964 .
* الدرّة اليتيمة (وهي رسالةالأدب الكبير):
نشر أحمد رفعت البدراوى، دار النجاح، بيروت، 1974 .
ـ ابن النديم: * الفهرست، ط . فلوغل .
ـ نصار (حسين) * نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، القاهرة 1954 .

نصوص مختارة من الأدب الصغير:
ما ينبغي للعاقل أن لا يضيّعه

وَلْيَعْلَمْ أَنّ على العاقِلِ أُمورًا إذا ضَيَّعَهَا حكَمَ عليهِ عقلُهُ بمُقَارَنَةِ الجهَّالِ .

فعلى العاقل أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الناسَ مشتركونَ مُسْتَوُونَ في الحبِّ لما يوافِق ، والبُغْضِ لما يؤذي ، وأَنَّ هذه منزلـةٌ اِتفقَ عَليها الحَمْقَى والأَكيـاس (1) ، ثم اختلفـوا بَعْـدَهـا في ثـلاثِ خصالٍ ، هُنَّ جِمَاعُ الصوابِ وجماعُ الخطإِ ، وعندَهُنَّ تفرقتِ العلماءُ والجهَّالُ ، والحَزَمَةُ والعَجَزَةُ (2) .

الباب الأول ـ من ذلك: أَنَّ العاقلَ ينظُرُ فيما يُؤْذيهِ وفيما يَسُرُّهُ ، فيعلمُ أنَّ احقَّ ذلك بالطلب إنْ كان مما يُحَبُّ وأَحَقَّهُ

(1) ألاكياس: جمع كيس وهو الاريب العاقل.

(2) الحزمة: جمع حازم والعجزة: جمع عاجز.

بالاتِّقاء ، إن كان مما يُكْرَهُ ، أَطوَلَهُ وأَدْوَمَهُ وأبقاه . فاذا هو قد أبصر فضلَ الآخِرةِ على الدنيا ، وفضلَ سرورِ المروءَةِ على لذةِ الهوى ، وفضلَ الرأيِ الجامعِ العامِّ الذي تَصْلُحُ به الأَنْفُسُ والأعقابُ على حاضر الرأيِ الذي يُسْتَمْتَعُ به قليلاً ثم يَضْمَحِلُّ ، وفضلَ الاكَلاَتِ على الأَكلةِ والساعاتِ على الساعةِ .

الباب الثَّاني ــ أَنْ يَنْظُرَ فيما يُؤْثِرُ من ذلك ، فَيَضَعَ الرّجاءَ والخَوف فيه موضعَهُ . فلا يجعلَ اتقاءهُ لغير المخُوف ، ولا رجاءه في غَيرِ المُدْرَكِ ، فَيَتْرُكَ عاجلَ اللذاتِ طلبًا لآجِلِها ، ويحتملَ قريبَ الأَذى توقِّيًا لبعيدِهِ ، فاذا صارَ إلى العاقبةِ ، بدا لهُ أَنَّ فِرَارَهُ كان تَوَرُّطًا ، وأَنَّ طلَبَهُ كانَ تَنَكُّبًا (3) .

الباب الثالث ــ هو تنفيذُ البصرِ بالعزمِ بعدَ المعرفةِ بفضلِ الذي هو أدومُ ، وبعدَ التثبُّتِ في مواضِعِ الرَّجاءِ والخوفِ ، فإنَّ طالِبَ الفضلِ بغيرِ بصرٍ تَائهٌ حَيْرانُ ، ومُبْصِرَ الفضل بغيرِ عزم ذو زَمَانةٍ (4) محروم .

الأدب الصغير
(ص 39 ــ 40)

---

(3) التنكب: التجنب .

(4) الزمانة : الكساحة : . ورجل زمن : مقعد كسيح .

واجبات الامام العاقل

على العاقلِ أَنْ يعرِفَ أنَّ الرأيَ والهوى متعاديانِ ، وأَنَّ مِنْ شأْنِ الناس تسويف الرأي واسعاف الهوى ، فَيُخالِفَ ذلك ويَلْتَمِسَ أَنْ لا يَزَالَ هواهُ مُسَوَّفًا ورأيُهُ مُسْعَفًا . وعَلى العاقلِ اذا اشتَبَهَ عليهِ أَمرانِ فَلَمْ يَدْرِ في أيّهما الصَّوابُ أنْ ينظرَ اهواهُما عندَهُ فَيَحْذَرَهُ .

وَمَنْ نَصَبَ نفسَهُ للنَّاسِ إمامًا في الدّينِ فعليهِ أنْ يَبْدأَ بتعليمِ نفسهِ وتقويمِها في السيرةِ والطُّعْمَةِ (1) والرأيِ واللّفظِ والأَخدَانِ ، فيكونَ تعليمُهُ بسيرتهِ أبلغَ من تعليمِهِ بلسانِهِ . فإنَّهُ كما أَنَّ كلامَ الحِكمةِ يُونِقُ الاسماعَ فكذلك عملُ الحكمةِ يَرُوقُ العيونَ والقلوبَ . ومُعَلِّمُ نفسِهِ ومُؤَدِّبُها أَحَقُّ بالإجلالِ والتفضيلِ من مُعَلِّمِ النَّاسِ ومُؤدِّبِهِمْ .

---

(1) وجه المكسب

وِلايةُ النَّاسِ بلاءٌ عظيمٌ . وعلى الوالي أَربعُ خِصال هي أَعْمِدَةُ السُّلطانِ واركانُهُ التي بها يقومُ وعليها يَثْبُتُ: الاجتهادُ في التَّخَيُّرِ ، والمبالغةُ في التقدُّمِ ، والتعهُّدُ الشديدُ ، والجزاءُ العتيدُ (2) .

أَمَّا التخَيُّرُ للعمالِ والوزراءِ فإِنَّهُ نِظامُ الامرِ وَوَضْع مَؤُونَةِ البعيدِ المنتشرِ: فإِنَّهُ عسى أَنْ يكونَ بِتَخَيُّرِهِ رجلًا واحدًا قدِ اختارَ أَلْفًا ، لأَنَّهُ من كان من العمالِ خِيارًا فَسَيَخْتَارُ كما اخْتِيرَ ، ولعلَّ عمالَ العاملِ وعُمَّالَ عُمَّالِهِ يَبْلُغُونَ عَدَدًا كثيرًا . فَمَنْ تَبَيَّنَ التخُّيرَ فقد أَخَذَ بسببٍ وثيقٍ ، ومن أَسّس أمرَهُ على غيرِ ذلك لم تَجد لِبُنْيَانِهِ قِوَامًا (3) .

وأَمّا التَّقديمُ والتَّوكيلُ ، فانَّهُ ليس كلُّ ذي لُبٍّ أَوْ ذي أَمانَةٍ يَعرِفُ وجوهَ الأمورِ والاعمالِ ، ولو كانَ بذلكَ عارِفًا ، لم يكُنْ صاحبُهُ حقيقًا أنْ يَكِلَ ذلك إلى علمه دونَ توقيفِهِ عليه ، وتَبْيِينِهِ له ، والاحتِجَاجِ به عليه . وأَمّا التَّعَهُّدُ ، فإِنَّ الواليَ إذا فعلَ ذلكَ كان سميعًا بصيرًا ، وإنّ العاملَ إذا فُعِلَ ذلك به كان مُتَحَصِّنًا حَريزًا .

وأَمّا الجزاءُ ، فانّه تثبيتُ المُحْسِنِ والرَّاحَةُ مِنَ المُسيءِ . لا يُسْتَطَاعُ السلطانُ إلاّ بالوزراءِ والأَعوانِ ، ولا ينفعُ الوزراءُ إلاّ بالمودّةِ والنَّصيحةِ ، ولا المودةُ إلاّ مَع الرأْيِ والعَفَافِ .

الأدب الصغير
(ص 48 — 51)

(2) العتيد : الحاضر المهيأ

(3) قوام الامر : عماده .

حكم

أَعْدَلُ السِّيَرِ أَنْ تَقِيسَ النَّاسَ بِنَفْسِكَ ، فَلا تأْتِي إِلَيْهِمْ إِلَّا ما تَرْضى أَنْ يُؤتَى إِلَيْكَ .

وأَنْفَعُ العَقْلِ أنْ تُحسِنَ المَعِيشَةَ فِيما أُوتِيتَ مِنْ خَيْرٍ ، وَأَنْ لَا تَكْتَرِثَ مِنَ الشَّرِّ بِمَا لَمْ يُصِبْكَ .

وَمِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ لا تَعلَّمُ بما لا تُعلَّمُ.

وِمِنْ أَحسَنِ ذَوِي العقولِ عَقْلاً مَنْ أَحْسَن تَقْدِيرَ أَمْرِ مَعَاشِهِ ومَعَادِهِ تَقْدِيرًا لا يُفْسِدُ عليهِ واحدٌ مِنْهُما الآخَرَ . فإنْ أَعْيَاهُ ذَلكَ رَفَضَ الأَدْنى ، وآثَرَ عليهِ الأَعْظَمَ .

وَقَالَ: المُؤمِنُ بِشيءِ من الأشياء وإنْ كانَ سِحْرًا ، خَيْرٌ مِمَّنْ لا يُؤمِنُ بشيءٍ ولا يَرْجُو مَعَادًا .

لا تؤدِّي التَّوْبَةُ أَحَدًا إلى النَّارِ ، ولا الإِصْرَارُ عَلى الذُّنوبِ أَحَدًا إلى الْجَنَّةِ .

مِنْ أَفْضَلِ أَعمالِ الْبِرِّ ثَلاثُ خِصالٍ : الصِّدْقُ فِي الغضَبِ ، والجُودُ في العُسرَةِ ، والعَفْوُ عندَ القُدْرَةِ .

رَأْسُ الذنوبِ ، الكَذِبُ ، هو يُؤَسِّسُهَا ، وهو يَتَفَقَّدُها ويُثَبِّتُها ، ويَتَلَوَّنُ ثلاثةَ ألوانٍ : بالأَمْنيَّةِ ، والجُحُود ، والجَدَل . يبْدَأُ صاحبَهُ بالأمنِيَّةِ الكاذبة فيما يُزيِّنُ له من السَّوءات ، فيُشَجِّعُهُ عليها بأنَّ ذلك سَيَخْفَى ، فإذا ظهر عليه قابَلَهُ بالجُحود والمُكابَرَة ، فإنْ أعياهُ ذلك خَتَم بالجدل ، فخاصمَ(1)عنِ الباطل ، ووضَع له الحُجَجَ ، والْتَمَسَ به التَّثَبُّتَ ، وكَابَرَ بِهِ الحقَّ حتَّى يكونَ مُسارعًا للضَّلالةِ ، ومُكابِرًا بالفَوَاحِش.

لَا يَثْبُتُ دينُ المرءِ على حالةٍ واحدةٍ أَبَدًا ، ولكِنَّهُ لا يَزالُ إمَّا زائدًا وإمَّا ناقِصًا .

مِنْ علاماتِ اللّئيم المخادعِ أَنْ يكونَ حَسَنَ القولِ ، سَيِّىءَ الفِعلِ ، بعيدَ الغضبِ ، قريبَ الحَسَد ، حَمُولًا لِلْفُحْشِ ، مُجازِيًا بِالحِقْدِ ، متكلّفا لِلجُودِ ، صغيرَ الخَطَرِ(2) ، مُتَوَسِّعًا فيما ليسَ لَهُ ، ضَيِّقًا فِيما يَمْلِكُ .

الادب الصغير
(ص 69 ـــ 71)

---

(1) خاصم عن الباطل: دافع عنه.

(2) الخطر، هنا، القدر والمنزلة.

المــال والغــنى

ماالتَّبَعُ والأعوانُ والصَّديقُ والحَشَمُ إلاّ لِلْمَالِ . ولايُظْهِرُ المروءَةَ إلاّ المالُ . ولا الرأْيُ ولا القوةُ الا بالمالِ .

وَمَنْ لا اخوانَ له فلا اهلَ لهُ . ومَنْ لا اولادَ لهُ فَلا ذِكْرَ لهُ . وَمَنْ لا عقلَ لَهُ فلا دنيا لَهُ ولا آخِرَةَ . ومَنْ لا مالَ لَه فلا شيءَ لَهُ .

والفَقْرُ داعيةٌ إلى صاحِبِهِ مَقْتَ النَّاسِ ، وهُوَ مَسْلَبَةٌ للعَقلِ والمروءَةِ ، ومَذْهَبَةٌ للعلمِ والأدبِ ، ومَعْدِنٌ للتُّهْمَة ، ومَجْمَعَةٌ للبلَايا . ومَن نزل به الفقرُ والفاقةُ لم يَجِدْ بُدًا مِنْ تَرْكِ الْحَياءِ . ومَنْ ذَهَبَ حياؤُهُ ذَهَبَ سرورُه ومن ذَهب سروره مُقِّتَ ، ومَنْ مُقِّتَ أُوذي ، ومن أُوذي حَزِن ، ومَن حَزِنَ ذَهَب عقلُهُ واسْتُنْكِرَ حِفْظُهُ وَفَهْمُهُ ، وَمَنْ أُصيب في عقلِهِ وَفَهْمِه وَحفْظه كانَ اكثرُ قولِهِ وَعَمَلِهِ فيما يكُونُ عليه لا لَهُ .

فإذا افْتَقرَ الرجلُ اتَّهمهُ مَن كَانَ لهُ مُؤْتَمِناً، وَأساءَ بِهِ الظَّنَّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِه حَسَناً. فإنْ أَذْنَبَ غيرُهُ أَظَنُّوهُ، وكان للتُّهْمَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ مَوضِعاً.

وليس خلَّةٌ هي للغنى مَدْحٌ إلاّ هي للفقيرِ عيبٌ:

فَإنْ كان شُجَاعاً سُمّيَ أَهْوَجَ، وَإِنْ كانَ جَواداً سُمّيَ مُفْسِداً، وَإِنْ كَانَ حلِيماً سُمِّيَ ضَعيفاً، وَإِنْ كَانَ وَقُوراً سُمّيَ بَلِيداً، وَإِنْ كَانَ لَسِناً سُمّيَ مِهْذاراً، وَإِن كَانَ صَمُوتاً سُمّيَ عَيِيّاً.

وكانَ يُقالُ: مَنِ ابْتُلِيَ بمرضٍ في جَسَدِهِ لا يفارِقُه، أَوْ بِفِراقِ الأَحبَّةِ والإخوانِ، أَوْ بالغُرْبَةِ حَيْثُ لا يَعْرِفُ مَبيتًا ولا مَقِيلاً ولا يَرْجُو إيابًا، أَو بِفَاقَةٍ تَضْطَرُّهُ إلى المسأَلةِ، فالحياةُ لهُ مَوْتٌ، والموتُ لَهُ رَاحةٌ. وَجَدْنَا البَلايا في الدّنيا إنَّما يَسُوقُها إلى أَهْلِها الحِرْصُ والشَّرَهُ. فَلَا يَزَالُ صاحبُ الدّنيا يتقلَّبُ في بَلِيّةٍ وتَعَبٍ، لأَنَّهُ لا يَزَالُ بِخَلَّةِ الحِرْصِ والشَّرَهِ.

الأدب الصغير

(ص87 ـ 89)

مقدمة رسالة الأدب الكبير

وَجَدنا النَّاسَ قبلَنا كـانوا أَعـظَمَ أَجسامًـا ، وأَوفَر مـعَ أجسامهمْ أحلامًا (1) وأشدّ قوةً ، وأَحسنَ بقوّتهم للامورِ إتقانًا ، وأطولَ أعمارًا ، وأَفضلَ بأعمارِهم للأَشياءِ اخْتِبارًا .

فكانَ صاحبُ الدِّينِ منْهُمْ أبلغَ في أمرِ الدِّينِ عِلْمًا وعملاً من صاحبِ الدِّينِ منا ، وكان صاحبُ الدنيا على مِثْل ذلك مِنَ البلاغةِ والفَضْلِ .

ووجدناهُمْ لم يَرْضوْا بما فازُوا به من الفضلِ لأَنْفُسِهِمْ حتى أَشرَكونا مَعَهُمْ فيما أدركوا من علمِ الأُولى والآخِرةِ ، فكتبوا به الكُتُبَ الباقيةَ ، وضربوا الأمثالَ الشَّـافيةَ ، وكَفَـوْنا بـه مؤُونَةَ التجارِبِ والفِطَنِ .

(1) الاحلام: جمع حلم: العقل.

وبلغَ من اهتمامِهم بذلك أَنَّ الرجلَ منهم كان يُفْتَحُ لهُ البابُ من العلمِ ، والكلمةُ من الصَّوابِ ــ وهو في البلد غَيْر المأهولِ ــ فَيَكْتُبُهُ على الصُّخورِ مبادرة منهُ للأَجلِ ، وكراهِيَةً لأَنْ يَسقطَ ذلكَ على مَنْ بَعدَهُ (2) . فكان صَنِيعُهُمْ في ذلكَ صنيعَ الوالدِ الشَّفيقِ على وَلَدِهِ ، الرّحيمِ البَرِّ بهِمْ ، الذي يجمعُ لَهُمُ الأَموالَ والعُقَدَ (3) إرادةَ أَنْ لا يكَونَ عليهِم مؤُونةٌ في الطَّلبِ ، وخَشْيَةَ عجزِهم إنْ هُم طلبوا .

فَمُنْتَهى عِلمِ عالِمِنا في هذا الزّمانِ أنْ يَأْخُذَ من عِلمِهِمْ ، وغايةُ إحسان مُحسِننا أنْ يَقْتَدِيَ بسيرَتِهِم ، وأحسنُ ما يُصيبُ من الحديثِ مُحدِّثنا أَنْ يَنظرَ في كتبِهم فيكونَ كأَنهُ إيّاهم يُحاورُ ، ومنهم يستمعُ .

غيرَ أَنَّ الذي نَجِدُ في كتبِهِم هو المُتَخَلُ (4) من آرائِهم والمُنتقى مِنْ أَحاديثِهِم . ولم نَجِدْهمْ غادروا شيئًا يَجِدُ واصفٌ بليغٌ في صِفَةٍ له مقالاً لم يَسْبقوهُ إليه ، لا في تعظيمِ للّه ــ عزَّ وجلَّ ــ وترغيبٍ فيما عندَه ، ولا في تصغيرِ للدنيا وتزهيدٍ فيها ، ولا تحرير صُنُوفِ العلمِ ، وتقسيمِ أقْسامِها ، وتجزِئَةِ أَجزائِها وتوضيحِ سُبُلِها وتبيينِ مآخِذها ، ولا في وُجُوهِ الأَدبِ وضرُوبِ الأَخلاقِ .

---

(2) يسقط على من بعده، أي يضيع عليه.

(3) العقد: جمع عقدة، وهي العقار ونحوه،

(4) المتنخل: المختار.

فلم يبْقَ في جليلٍ من الَأمرِ لقائلٍ بَعْدَهُمْ مَقالٌ .

وقد بَقِيَتْ أَشياءُ مِنْ لطائفِ الأمور فيهـا مَواضِـعُ لصغارِ الفِطَنِ مُشْتَقَّةٌ من جِسامِ حِكَمِ الَأوّلينَ وقَـوْلِهم ، ومن ذلك بعَض ما أَنا كاتبٌ في كتابٍ هذا مِن أبوابِ الَأدبِ التي يحتاجُ اليها الناسُ .

الأدب الكبير
(ص97 ــ 100)

أصول الأدب في الدين

فأَصلُ الأمر في الذينِ أَنْ تَعْتَقدَ الايمانَ عـلى الصَّواب ، وتَجْتَنِبَ الكبائرَ ، وتُؤَدّيَ الفريضةَ . فالزمْ ذلـك لزومَ مَنْ لا غَنَاءَ بِهِ عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ ، ومَنْ يَعلمُ أَنَّهُ إنْ حُرِمَهُ هَلَكَ . ثُم إنْ قَدَرْتَ على أن تُجاوِزَ ذلك إلى التَّفَقُّهِ في الدين والعبادةِ ، فهو أَفضلُ .

وأصل الامر فيي إصلاحِ الجسَدِ أَلَّا تَحْمِلَ عليهِ من المآكلِ والمشاربِ والبَاهِ إلاّ خِفَافًا ، وإنْ قَدَرْتَ على أَنْ تَعْلَمَ جميـعَ منافِعِ الجسدِ ومَضَارِّهِ ، والانتِفَاعَ بذلكَ فهو أَفضلُ .

وأَصلُ الأمرِ في البأْسِ أَلا تُحَدِّثَ نَفسَكَ بالإدبارِ وأَصحابُكَ مُقْبِلونَ على عدوِّهم ، ثم إن قَدرْتَ على أنْ تكونَ أوَّلَ حامل وآخِرَ مُنْصَرِفٍ ، من غيرِ تضييعٍ للحَذَرِ ، فهو أَفضلُ .

وأَصلُ الأمرِ في الجُودِ أَلّا تَضِنَّ بالحقوقِ على أَهلها ، ثم

إنْ قَدَرْتَ عَلى أنْ تزيدَ ذا الحَقِّ على حقِّهِ ، وتَطُول (1) على مَنْ لا حقَّ له ، فهو أَفضلُ .

وأَصْـلُ الأَمـرِ في الكـلامِ أَنْ تَسْلَمَ مِنَ السَّقطِ (2) بالتَّحَفُّظِ ، ثُمَّ إنْ قَدَرْتَ على بُلُوغِ الصَّوابِ ، فهو أَفضلُ.

وأَصْلُ الأمرِ في المعيشةِ أَلَّا تَني عنْ طَلَبِ الحلالِ ، وأَنْ تُحْسِنَ التَّقديرَ لما تُفيدُ وما تُنفِقُ . ولا يَغُرَّنَّكَ من ذلك سَعَةٌ تكونُ فيها؛ فإنَّ أَعظمَ النَّاسِ في الدنيا خَطَرًا (3) أحوجُهُم إلى التَّقدير؛ والملوكُ احوجُ إلى التَّقدير من السُّوقةِ لأنَّ السُّوقَةَ قَدْ تَعيشُ بغيرِ مالٍ ، والملوكُ لا قِوَامَ لهم إلَّا بالمالِ . ثُمَّ إنْ قَدرْتَ على الرِّفْقِ واللُّطْفِ في الطَّلَبِ والعلمِ بالمطالب ، فهو أَفضلُ .

وَأنـا واعِظُكَ في أَشيـاءَ من الاخـلاقِ اللّطيفـةِ ، والأُمـورِ الغامضةِ ، التي لَوْ حَنَّكَتْكَ سِنٌّ كنتَ خليقًا أَنْ تعلَمَها، وإن لَم تُخْبَرْ عنها . ولكنِّي أَحْبَبتُ أنْ أُقَدِّمَ إليكَ فيها قَولاً لتروُضَ نفسَكَ على محاسِنها قبلَ أَن تَجْرِيَ على عادةِ مَساوِيها ، فـإنَّ الانسانَ تَبْدرُ إليه في شبيبته المساوئُ ، وقد يَغْلِبُ عليـهِ ما يَبْدُرُ إليه منها .

الأدب الكبير
(ص101 ـ 103)

---

(1) تطول ، أي تمتنّ

(2) السقط « بفتحتين »: الخطأ من القول والفعل.

(3) الخطر بالتحريك: الشرف وارتفاع القدر.

نصائح لأصحاب السلطة

إنِ ابتُليتَ بالسُّلطانِ فتعوَّذْ بالعلماءِ . واعْلَمْ أنَّ مِنَ العُجْبِ أنْ يُبتَلى الرَّجلُ بالسُّلطانِ فيُريد أنْ يَنْقُصَ من ساعات نَصَبِهِ وعملِهِ فَيَزِيدَها في ساعـاتِ دَعَتِهِ وشَهْـوتِه . وإنَّمـا الرأْيُ لـهُ والحقُّ عليه ، أَنْ يأخذَ لعملِهِ من جميعِ شغلِهِ ، فيأخذَ له من طعامِهِ وشَرابِه ونَوْمِهِ وحديثِهِ ولَهْوِهِ ونسائِهِ قَـدْرَ ما يكـونُ به إصلاحُ جَسمِهِ وتَقْويةُ له على إتمام عملِهِ . وانما تكونُ الدّعةُ بعدَ التَّرفُّعِ .

فإذا تقلَّدتَ شيئًا من أمرِ السلطانِ فكنْ فيه أَحَدَ رَجُلَيْنِ: إمّا رجلاً مُغْتَبِطًا بِهِ ، فحافَظَ عليه مخافةَ أنْ يزولَ عنه؛ وإمّا رجلاً كارِهًا له . فالكارِهُ عاملٌ في سُخْرةٍ: إمَّا للملوكِ ، إنْ كانُوا هُمْ سلَّطُوهُ ، وإمَّا للّهِ تعالى إنْ كانَ ليسَ فوقَهُ غيرُهُ .

وقد علمتَ أنّه مَنْ فَرَّطَ في سُخْرةِ الملوكِ أَهلكوهُ ، فلا تجْعَلْ للهلاكِ على نفسِكَ سلطانًا ولا سبيلاً .

إيَّاكَ ـ إذا كنتَ واليًا ـ أنْ يكونَ من شأْنِكَ حُبُّ المدحِ والتَّزْكيَةِ ، وأنْ يَعْرِفَ النَّاسُ ذلك منك ، فتكونَ ثُلْمةً من الثلَمِ يَتَقَحَّمُونَ عليكَ منها ، وبابًا يَفْتَتِحُونكَ منه ، وغيبَةً يَغْتَابُونَكَ بها ، ويَضْحَكُونَ منك لها .

واعلمْ أنَّ قابِلَ المدحِ كمادِحِ نفسهِ . والمرءُ جديرٌ أنْ يَكونَ حُبُّهُ المدحَ هو الذي يحمِلُهِ على ردِّهِ ، فإنَّ الرَّادَّ له محْمُودٌ ، والقابِلَ له مَعِيبٌ .

لِتَكنْ حاجَتُكَ في الولايةِ إلى ثَلاثِ خصالٍ : رِضَى ربِّكَ ، ورِضى سُلطانٍ إنْ كان فَوْقَكَ ، ورِضى صالِح مَنْ تَلِي عليه . ولا عليكَ أَنْ تَلْهَى عَنِ المالِ والذِّكْرِ ، فسيأْتيكَ منهما مَا يَكْفِي ويَطِيب.

واجعلِ الخِصالَ الثَّلاثَ بمكانٍ ما لا بُدَّ لك منه ، واجعلِ المالَ والذِّكرَ بمكانٍ ما أَنتَ واجدٌ منهُ بُدًا .

اعرفْ أَهْلَ الدينِ والمُروءةِ في كلّ كُورةٍ(1) وقريةٍ وقبيلةٍ ، فَيَكونُوا هُمْ إخوانَكَ وأَعْوانَكَ وبِطانَتَكَ وثِقاتَكَ .

الأدب الكبير
(ص104 ـ 106)

---
(1) الكورة : الصقع والمدينة.

رضى الناس

إنّكَ إنْ تلتمِسْ رِضى جميعِ النَّاس تَلْتمِسْ ما لا يُدرَكُ وكَيْفَ يَتَّفِقُ لك رأيُ المخْتلِفين؟ وما حاجتك إلى رضى مَن رضاهُ الجوْرُ، وإلى موافَقةِ مَن مُوافقتُهُ الضلالة والجهالةُ؟ فعليكَ بالتماسِ رِضى الأَخيارِ منهم وذَوِي العقلِ، فإنّكَ متى تُصِبْ ذلك تَضَعْ عنكَ مؤونةَ ما سِوَاهُ.

لا تُمكِّنْ أهلَ البَلاءِ الحسنِ عندَكَ مِن التَّذلُّلِ. ولا تمكِّنْ مَن سِواهُم من الاجْتِرَاءِ عَلَيْهِمْ والعيبِ لهم لِتُعَرِّفْ رعيَّتَكَ ابوابَك التي لا يُنالُ ما عندَكَ مِنَ الخيرِ إلاّ بها، والأَبوابَ التي يَخافُكَ خائِفٌ إلاّ مِنْ قِبَلها.

احرِصِ الحِرصَ كلَّهُ على أنْ تكونَ خبيرًا بأُمورِ عُمّالِكَ؛ فإنَّ المسيءَ يَفْرَقُ (1) مِنْ خِبْرتِك قبلَ أنْ تُصيبَهُ عُقوبتُكَ، وإنَّ المُحْسِنَ يَسْتَبْشِرُ بِعِلْمِكَ قبلَ أنْ يأْتيَهُ معروفُكَ.

---

(1) يفرق: يخاف.

لِيَعْرِفِ النَّاسُ ـ فيما يَعْرفونَ مِنْ أخلاقِكَ ـ أَنَّكَ لا تُعاجِلُ بالثَّوابِ ولا بالعِقابِ؛ فإنَّ ذلك هو أدومُ لخوفِ الخائفِ ، ورجاءِ الرَّاجي .

الأدب الكبير
(ص107 ـ 108)

نصائح لصحابة السلطان

إنْ شُغِلتَ بِصُحْبَةِ الْمُلوكِ فعليكَ بِطولِ الْمُرابطةِ في غيرِ مُعاتبةٍ ، ولا يُحْدِثَنَّ لكَ الاسْتِئْناسُ غفْلَةً ولا تَهاوُنًا .

إذا رَأيتَ السُّلْطانَ يَجْعَلُكَ أخًا فاجْعلْهُ أبًا ، ثُمَّ إنْ زَادَك فَزِدْهُ .

إذا نَزَلْتَ مِنْ ذِي مَنْزِلَةٍ أَوْ سُلْطَانٍ ، فلا تَرَيَنَّ أَنَّ سُلْطَانَهُ زَادَكَ لَهُ تَوْقِيرًا وإجْلالاً ، مِنْ غيرِ أَنْ يَزِيدَك وُدًّا ولا نُصْحًا ، وأَنَّكَ تَرى حَقًّا له التَّوقيرَ والإجْلالَ . وكُنْ في مُداراتِهِ والرِّفْقِ بِهِ كالْمُؤْتَنِفِ (1) ما قبلَه . ولا تُقَدِّرِالأمرَ بينَكَ وبينَهُ على ما كنتَ تَعْرِفُ من أَخلاقِـهِ؛ فإنَّ الاخـلاقَ مستحيلةٌ (2) مع الْمُلْكِ ، وربّما رأَيْنَا الرَّجُلَ الْمُدِلَّ على ذي السُّلطانِ بِقِدَمِهِ قد أَضَرَّ بـه قِدَمُـهُ . إنِ استطعتَ ألاّ تَصْحَبَ مَنْ صَحِبْتَ مِنْ

(1) ائتنف : أخذ فيها وابتدأ وواصل.

(2) مستحيلة: متحوّلة.

الولاةِ إلاّ على شُعْبَةٍ مِنْ قَرابَةٍ أو مَوَدَّةٍ فافعَلْ . فإنْ أخطأك ذلك فاعلْم أنكَ انما تَعْمَلُ على عملِ السُّخرة . وإن استطعتَ أن تجعَلَ صُحْبَتكَ لِمَنْ قَدْ عَرَفَكَ منهم بصالِحِ مُرُوءَتِك قبلَ وِلايتِهِ فافعل ، فَإنَّ الواليَ لا عِلْمَ له بالنَّاسِ إلاَّ ما قَد عَلمَ قَبْلَ وِلايَتِهِ ، فأمَّا إذا وَلِيَ فكلُّ الناسِ يَلقاهُ بالتَّزينِ والتَّصَنُّعِ ، وكلُّهم يحتالُ لأنْ يُثْنِيَ عليه عندَهُ بما ليسَ فيهِ ، غيرَ أَنَّ الانذالَ والارذالَ هُمْ أشدُّ لذلك تَصَنُّعًا ، وعليه مُكَابَرَةً ، وفيه تَمَحُّلاً . فلا يَمْتَنِعُ الوالي ـ وإنْ كانَ بليغَ الرأْيِ والنَّظَرِ ـ مِن أنْ يَنْزِلَ عندَهُ كثيرٌ مِنَ الاشرارِ بمنزلةِ الاخيارِ ، وكثيرٌ مِنَ الخانةِ (3) بمنزلةِ الأُمَناءِ ، وكثيرٌ من الغَدَرَةِ بمنزلةِ الأوفياءِ ، ويُغَطَّى عليه أَمر كثيرٍ من أَهْلِ الفضْلِ الذين يصُونون أَنْفُسهم عَنِ التّمَحُّل (4) والتَّصَنُّع .

الأدب الكبير
« ص 120ـ 122 »

(3) جمع خائن. مثل الخونة والخائنين.

(4) التمحل: الاحتيال.

نصائح للوزراء

وَلا يَكونَنَّ طَلَبُكَ ما عندَ الوالي بالمسألةِ ، ولا تَسْتَبْطِئْهُ ، وانْ أَبطأَ . ولكِنِ اطْلُبْ ما قِبَلَهُ بالاستحقاقِ لهُ ، واستأْنِ وانْ طالتِ الأناةُ . فإنَّكَ اذااسْتَحْقَقْتَهُ أتاكَ منْ غيرِ طَلَب ، وانْ لَمْ تَسْتَبْطِئْهُ كانَ أَعْجَلَ لَهُ .

لاتُخَبِرَنَّ الوالي أنّ لك عليه حقًا ، وأنَّكَ تَعْتَدُّ عليه ببَلاءٍ . وانِ استطعتَ أَنْ يَنْسَى حقَّكَ وبلاءَكَ فافْعَلْ . ولْيَكُنْ ما تَذْكُرُهُ مِنْ ذلك تجديدَكَ له النصيحةَ والاجتهاد ، وألّا يزالَ ينظُرُ منكَ إلى آخِرٍ يُذكِّرُهُ أوَّلَ بَلائِكَ .

واعْلَمْ أنَّ وليَّ الأمر إذا انقطع عنـه الآخِرُ نَسِي الأوَّلَ، وأنَّ أرحامَهُـمْ مقطوعة، وحبالَهُم مصرومةٌ، إلاّ عمَّنْ رَضُوا عنهُ، وأغْنى (1) عنهم في يومِهِم وساعَتِهِمْ.

(1) أغنى عنهم: قام مقامهم.

إيَّاكَ أَنْ يَقَعَ في قلبِكَ تَعَتُّبٌ على الوالي أوِ اسْتِزراءٌ لَهُ؛ فإنَّه إنْ آنَسْتَ أن يَقَعَ في قلبِكَ بَدا في وَجهِكَ انْ كُنْتَ حَليمًا ، وبَدا على لسانِكَ إنْ كُنْتَ سَفيهاً وَإنْ لم يَزِدْ ذلكَ على أَنْ يَظْهَرَ في وجهِكَ لآمَنِ الناسِ عندَكَ ، فلا تأْمَنَنَّ أَنْ يَظْهَرَ ذلكَ لِلْوالي؛ فإنَّ النَّاسَ إليه بعوراتِ الإخوانِ سِراعٌ . فاذا ظَهرَ ذلكَ للوالي كان قلبُهُ هو أسرعَ إلى التَّعَتُّبِ والتَّعَزُّزِ من قلبِكَ ، فَمَحَقَ ذلك حَسَناتَكَ الماضِيةَ وأَشْرَفَ بكَ على الهلاكِ ، وصِرْتَ تَعْرِفُ أَمْرَكَ مُسْتَدْبرًا ، وتَلْتَمِسُ مَرْضاتَهُ مُسْتَصْعِبًا . ولو شِئتَ تركتَهُ بإذنِ اللّهِ راضيًا ، وازْدَدْتَ من رضاهُ دُنُوًّا .

اِعلَمْ أَنَّ أكثرَ النَّاسِ عَدُوًّا مُجاهرًا حاضرًا جريئًا واشيًا وزيرُ السُّلْطانِ ذو المكانَةِ عندَهُ؛ لأَنَّهُ منفوس عليه بما يُنْفَسُ على صاحبِ السلطانِ ، ومحسودٌ كما يُحْسَدُ . غيرَ أنهُ يُجْتَرَأُ عليهِ ولا يُجْتَرَأُ على السُّلْطانِ؛ لَأنَّ مِن مُحاسِديه أَحِبَّاءَ السُّلْطانِ الذين يُشارِكُونَهُ في المداخِلِ والمنازِلِ ، وهُمْ وغَيْرُهُم مِنْ عَدوِّهِ الذين هُم حُضَّارُهُ ، ولَيْسُوا كَعَدُوٍّ مَنْ فَوْقَهُ النَّائي عنه المتَكَتِّم منهُ ، وهُم لا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُمْ مِنَ الظَّفَرِ بهِ ، فلا يَغْفَلُونَ عَنْ نَصْبِ الحَبائِلِ لهُ .

فاعرِفْ هذِهِ الحالَ والبَس لهؤلاءِ القومِ الذينَ هُمْ أعداؤُكَ سِلاحَ الصِّحَّةِ والاستقامةِ ، ولُزومِ الحُجَّةِ فيما تُسِرُّ وتُعْلِنُ؛ ثُمَّ رَوِّحْ مِنْ قَلْبِكَ كأَنَّهُ لا عدُوَّ لكَ ولا حاسِدَ .

الأدب الكبير
(ص125 ــ 127)

معاملة الصديق

ابذل لصديقك دمَكَ وَمَالَكَ ولمعرِفَتِكَ رِفدَكَ (1) ومَحْضَرِكَ للعامّةِ بِشْرَكَ وتَحَنُّنَكَ ، ولعدوِّكَ عَدْلَكَ وإنصافَكَ . واضْنَنْ بدينِكَ وعِرْضِكَ عَنْ كلِّ أَحَدٍ .

إنْ سَمِعْتَ من صاحبِكَ كلامًا أو رأْيًا يُعْجِبُكَ فلا تَنْتَحِلْهُ (2) تزَيُّنًا به عندِ الناسِ ، واكتفِ من التزَيُّن بأَنْ تجْتنِيَ الصَّوابَ إذا سمعتَه ، وتنسبَهُ إلى صاحِبِهِ .

واعلَمْ أَنَّ انتحالَكَ ذلك مَسْخَطَةٌ لصاحبك ، وأَنَّ فيهِ معَ ذلك عارًا وسُخْفًا .

فإنْ بلغَ بك ذلك أنْ تُشيرَ برأيِ الرجلِ وتتكلَّمَ بكلامِهِ وهو يسمعُ ، جَمَعتَ معَ الظُّلمِ قلةَ الحياءِ ، وهذا من سوءِ الأدبِ الفاشي في النَّاسِ .

---

(1) الرفد : العطاء

(2) انتحل الشيء : ادعاه لنفسه .

ومِن تَمام حُسْنِ الخُلقِ والأَدبِ في هذا البابِ أَنْ تَسْخُوَ نفسُك لأخيكَ بما انتَحلَ من كلامِك ورأيِك ، وتنسبَ اليهِ رأْيَهُ وكلامَهُ ، وتزَيِّنَهُ مَعَ ذلكَ مااستطعتَ .

لايكوننَّ مِن خُلُقِك أنْ تَبْتَدِئَ حديثًا ثم تَقْطَعَهُ وتقولَ: سوفَ ، كأَنَّك رَوَّأْتَ(3) فيه بعدَ ابتدائِهِ . وليَكُنْ ترويك فيه قبل التَّفَوُّه؛ فانَّ احْتِجَانَ(4) الحديثِ بعد افتِتاحِهِ سُخْفٌ وغَمٌّ .

آخْزُنْ عقلَك وكلامَك إلاّ عندَ اصابةِ المِوضع ، فإنّه ليس في كلٍّ حينٍ يَحْسُن كلُّ الصَّوابِ ، وإنّما تمامُ إصابةِ الرأْيِ والقولِ باصابةِ الموضِعِ فانَ أخطأكَ ذلكَ أدخلتَ المَحْنَةَ على عِلْمِكَ ، حتّى تأْتِيَ بِهِ ، إنْ أتيت في موضِعِهِ ، وهو لا بهاءَ لَهُ ولا طَلاوَةَ .

لِيَعرفِ العُلماءُ حينَ تُجالسُهُم أَنّك على أَن تَسْمَعَ أَحْرَصَ منكَ على أَنْ تَقُولَ .

الأدب الكبير
(ص142 ـ 144)

(3) روأت في الامر: اذا نظرت فيه وفكرت.

(4) الاحتجان: الامساك. احتجن المال: ضمه الى نفسه وامسكه.

رأى في النســـاء

اِعلَم أَنَّ من أوقعِ الأمورِ فِي الدينِ ، وأَنْهكِها للجسدِ ، وأتلَفِها للمالِ ، وأَضَرِّها بالعقلِ ، وأَزراها للمُروءَةِ ، وأسرعها في ذهابِ الجَلالةِ والوَقارِ ، الغرامَ بالنِّساء . ومن البلاءِ على المُغْرَم بهِنَّ أنّهُ لا ينفكُّ يأْجِمُ(1) ما عندَهُ ، تطمَحُ عيناهُ إلى ما ليس عندَهُ منهُنَّ .

وإنّما النِّساء أَشْباهٌ . وما يُرى فِي العيونِ والقلوبِ مِنْ فضلِ مجهولاتِهِنَّ على معروفاتِهِنَّ باطلٌ وخُدْعةٌ . بل كثيرٌ مِمَّا يَرْغَبُ عنهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عندَهُ أَفضلُ مما تتوقُ اليه نفسُهُ منهنَّ .

وإنّما المُترغِّبُ عمّا في رَحْلِه(2) منهنَّ إلى ما في رِحالِ الناسِ المترغّب عن طعامِ بيتِهِ إلى ما في بيوتِ الناسِ ، بلِ النِّساءُ أَشبهُ

(1) يكره ، وأجم الطعام: كرهه ومله.

(2) الرحل: مسكن الرجل في الحضر. ويطلق على أمتعة المسافر.

بالنِّساءِ منَ الطعَام بِالطَّعَامِ وما في رحالِ الناسِ من الاطعمةِ أشدُّ تفاضُلاً وتفاوتًا مِمّا في رِحالِهِمْ منَ النِساءِ .

ومِنَ العَجَبِ أَنَّ الرجُلَ الذي لا بأْسَ في لُبِّهِ ورأْيِهِ يَرى المرأَةَ مِنَ بعيدٍ مُتَلَفِّفةً في ثيابِها ، فيُصوَّر لها في قلبِهِ الحُسنَ والجمال حتى تعلَقَ بها نَفْسُهُ ، من غيرِ رؤيةٍ ولا خَبَرِ مُخبِرٍ ، ثم لعَلَّه يَهْجُمُ منها على أقْبَحِ القُبَحِ وأَدَمِّ الدَّمامَةِ . فلا يعظهُ ذلك ولا يَقْطعهُ عن أمثالها ، ولا يزالُ مَشْغُوفًا بما لَمَ يَذُقْ ، حتّى لو لم يبقَ في الأرضِ غيرُ امرأَةٍ واحدةٍ لظَنَّ أَنَّ لها شأْنًا غيرَ شأْنِ ما ذاقَ . وهذا هو الحُمْقُ والشَّقاءُ والسَّفَهُ .

ومَنْ لم يَحْمِ نفسَهُ ويظْلِفها ويَجْلُها (3) عن الطَّعام والشرابِ والنساءِ في بَعضِ ساعاتِ شَهْوَتِهِ وقُدْرَتِهِ ، كانَ أَيْسَرَ ما يُصيبُهُ من وبَال أَمْرِهِ انْقِطاعُ تِلْكَ اللَّذات عنه ، بخُمودِ نارِ شَهْوَتِهِ ، وَضعْفِ عَواملِ جَسَدِه . وقَلَّ من تجد إلاّ مخادعًا لنفسه في أمر جَسَدِهِ ، عن الطَّعَام والشَّرابِ والحِمْيَةِ والدواءِ ، وفي أمرِ مُروءَتِهِ ، عندَ الأهواءِ والشَّهَواتِ ، وفي أَمـر دينِهِ ، عندَ الريبةِ والشُّبْهَةِ والطَّمَعِ .

الأدب الكبير
(ص 166 — 168)

(3) يظلف نفسه عن الشيء: يكفها ويمنعها. ويجلو نفسه اي يبعدها ويطردها.

نصـــوص مختـارة من رسالة الصحـابة

تذكير الخليفـــة

فَمِنَ الأُمورِ التِّي يُذَكَّرُ بها أميرُ المُؤْمِنِينَ ، أمتَـعَ آللّهُ بهِ ، أمرُ هذا الجُنْدِ مِنْ أَهْلِ خُـراسان ، فـإنَّهُمْ جُنْدٌ لم يُـدْرَكْ مِثْلُهُم في الإسْـلَام ، وفيهم صِفَةٌ بهـا يَتمُّ فَضْلُهُمْ إنْ شـاءَ اللّه . أمّا هُمْ فأهْلُ بَصَرٍ بالطَّاعَةِ ، وفَضْـلٍ عِندَ النَّـاسِ ، وعفَافِ نُفُوسٍ وفُـرُوجٍ ، وكَفٍّ عَنِ الفَسَاد ، وذُلٍّ للوُلاةِ . فَهـذِهِ حال لا نَعْلَمُهَـا تُوجَـد عندَ أحَـدٍ غيرهم . وأمَّـا مـا يحتَاجُــونَ فِيــه إلى النَّفعــة (1)، منْ ذلك تَقْويــمُ أيــديهم ورأيهم وكـلامِهِمْ، فإنَّ في ذلـك القومِ أخـلاطًـا مِنْ رَأسٍ مُفْـرِطٍ غالٍ ، وتابعٍ مُتَحَيِّرٍ شاكٍّ . وَمَنْ كانَ إنَّما يَصُولُ على النَّاسِ بِقَومٍ لَا يَعْرف مِنْهُمُ الموافَقَة في الرَّأْيِ والقَولِ والسِّيرَة ، فَهو كَراكِبِ الأَسَدِ الذي يَوْجَلُ مَنْ رَآهُ ، والرَّاكِبُ أشَدُّ وَجَلًا .

(1) النفعة: التأديب.

فَلَوْ أنَّ أميرَ المؤْمنِينَ كَتَبَ أمانًا مَعْرُوفًا بليغًا وجِيزًا مُحِيطًا بِكلِّ شَيْءٍ يجبُ أنْ يعملوا فيهِ أو يكُفُّوا عنه، بالِغًا في الحُجَّةِ قاصِرًا عن الغُلوّ، يَحْفَظهُ رُؤَساؤُهُمْ، حَتَّى يَقُودُوا بِهِ دَهْمَاءَهُمْ، وَيَتَعَهَّدُوا بِهِ مِنْهُم مَنْ دُونَهُمْ مِنْ عُرْضِ النَّاس (2)، لكانَ ذلك، إن شاء الله، لرأيهم صَلاَحًا، وعلى مَنْ سِوَاهُمْ حُجَّةً، وعندَ الله عُذْرًا؛ فإن كثيرًا مِنَ المتكلِّمينَ مِنْ قُوَّادِ أمير المؤمِنِينَ اليَوْمَ إنَّما عامّة كلامهم، فيما يأمر الآمِر ويزعُمُ الزاعِمُ، أنَّ أميرَ المؤمنينَ لَوْ أمَرَ الجبَالَ أنْ تَسِيرَ سارت، ولو أمَرَ أنْ تُسْتَدْبَرَ القِبْلَةُ بالصَّلاةِ فُعِلَ ذلكَ. وهذا كلامٌ قَلَّ أنْ يَسْمَعَهُ منْ كانَ مُخالِفًا، وقلَّما يَرِدُ في سَمْعِ السامِعِ إلاّ أحْدَثَ في قَلْبِهِ ريبَةً وشَكًّا.

والذي يَقُولُ أهْلُ القَصْدِ « 3 » مِنْ المُسْلمينَ هُوَ أقْوى لِلأمْرِ، وأعزُّ لِلسُّلْطَانِ، وأقْمَعُ لِلمُخَالِفِ، وأرْضَى لِلْمُوافِقِ، وأثْبَتُ للعُذْر عِنْدَ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

رسالة الصحابة

(ص194 ـــ 195)

---

(2) عرض الناس: عامتهم.

(3) اهل القصد: اهل الاعتدال.

انتقـاد الجنـد

وَممَّا يَنْظرُ فيهِ لصلاحِ هذا الجُنْدِ ألاَّ يُوَلِّيَ أحَدًا مِنهم شيْئًا مِن الخراج؛ فإنَّ وِلايـة الخراجِ مَفْسـدةٌ لِلْمُقاتلة. ولم يـزَل النَّاسُ يَتَحامَوْن ذلك مِنهم ويُنحُّونَه عنهُم، لأنَّهم أَهْـلُ دالَّةٍ ودَعوَى بلاءٍ، وإذا كانُوا جُلاَّبًا لِلدّراهمِ والـدّنانـير اجْترؤوا عليهما. وَإذا وَقَعُوا في الخِيـانةِ صـارَ كلُّ أمْـرهم مَدْخـولاً: نَصِيحتهم وطاعتهم، فإنْ حيل بيْنهم وبين وَضْعـه أَخْرَجَتْهم الحمِيَّة. مَع أنَّ وِلايةَ الخراجِ داعيةٌ إلى ذِلّةٍ وحُقْريّة وهَوانٍ، وَإنما مَنزلة المقاتِلِ مَنزِلة الكَرامَة واللُّطف.

وممَّا ينْظرُ فيه مِن أمرِهم أنَّ مِنهم مِن المجهولين مَن هـو أفضلُ مِن بَعضِ قادَتِهم، فلو أُلتُمِسوا وصُنِعوا(1) كانوا عُدَّةً

(1) صنعوا، أي أحسن اليهم.

وقوَّةً ، وكان ذلك صَلاحًا لِمَنْ فَوْقَهم مِن القَادَةِ وَ مَن دُونهم مِن العامَّة .

وَمِن ذلـك تَعهُّدُ أَدَبهم في تعَلُّم الكتـابِ ، والتَّفقُّـهِ في السُّنَّة ، والأمانةِ والعِصْمةِ ، والمُبايَنةِ لأهلِ الهوى ، وأنْ يُظْهر فيهم مِن القَصْدِ والتَّواضع وآجْتِناب رَأْيِ المُتـرَفِينَ وشَكْلِهم مِثْلُ الذي يَأْخُذُ به أَميرُ المؤمِنينَ في أَمرِ نفْسه ، ولا يَزالُ يُطَّلَع عليه مِن أَميرِ المؤمنين ويَخرُج منه من القَوْل ، مما يُعْرَفُ بـه مَقْتُه للإترافِ والإسرافِ وأَهْلِهما ، ومَحَبَّتُه القَصْد والتَّواضُع ومَن أَخَذَ بهما ، حتَّى يَعْلَموا أنَّ مَعْرُوفَ أَمير المؤمنين مَحْظورٌ عَمَّن يَكنِزهُ بُخْلا ، أو يُنفِقه سَرَفًا في العِطرِ واللِّباس والمُغالاةِ بالنِّساء والمَراتِب ، وأَنَّ أميرَ المؤمنين يُؤْثِرُ بالمعرُوفِ مَن وُجْهَتهُ المعروف والمواساة .

ومِن ذلك أَمرُ أرْزاقِهم ، أَنْ يُوَقِّتَ لهم أميرُ المؤمنين وَقتًا يَعْرفونه في كلِّ ثلاثَةِ أشهرٍ أوْ أرْبعة أو ما بَدا له ، وأنْ يَعْلَمَ عـامتُهم العُذرَ الـذي في ذلك ، مِن إقـامَـةِ دِيـوانِهم وجَمْـل أَسـمائهم ، ويَعلَمـوا الـوَقْتَ الـذي يـأْخُـذونَ فيـه ، فَينقـطع الاَسْتبطاءُ والشَكْوَى؛ فإنَّ الكلِمةَ الواحدَةَ تَخرُج من أَحَدِهم في ذلك أهْلٌ أنْ تُسْتَعظَم ، وإنَّ بابَ ذلك جديرٌ أنْ يُحسَم مع أنَّ أميرَ المؤمنين قد عَلِم كَثرةَ أرْزاقِهم ، وكَثْرَةَ المالِ الـذي يَخْرُج لهم ، وأَنَّ هذا الخراجَ إنْ يكُنْ رائجًا لغَلاءِالسِّعر ، فإنَّهُ لا بُدَّ مِن الكَسَادِ والكَسْر ، وأن لكلِّ شيءٍ دِرَّةً وَغَزارَة ، وإنما دُرُورُ خَراجِ العِراقِ بارْتفاع الأسْعارِ، وإنما يَحتَاجُ الجُندُ اليَوْمَ

إلى ما يحتاجون إليْه مِن كَثرةِ الرِّزق لغَلاءِ السِّعْر. فمِنْ حُسْنِ التَّقديرِ، إنْ شاءَ اللّه، أَلاّ يَدْخُلَ عَلى الأرض ضرَرٌ، ولا بَيْتِ المالِ نُقصانٌ مِن قِبَلِ الرَّحْمان، إلاّ دَخَلَ ذلك عَليهم في أَرزاقهم. مَع أَنَّه لَيس عليهم في ذلك نُقصان؛ لأنهم يَشْترون بالقليلِ مثلَ ما كانوا يشترونَ بالكَثير. فأَقولُ: لو أَنَّ أَميرَ المؤمنين خَلَّى شيئًا مِن الرِّزْق، فيجعَل بعضَه طَعامًا، ويَجعَل بعضَه عَلَفًا، وأُعطوهُ بأَعْيانه، فإنْ قُوِّمت لهم قيمتُه فخرَج ما خَرَج عَلى حِسابة(2) قِيمَة الطَّعَامِ والعَلَف، لم يكن في أَرزاقِهم لذلك نُقصانٌ عاجِلٌ يَسْتنكرُونَه، وكان ذلك مَدْرَجَةً لِثَباتهم في نِزالهم على العَدُوِّ، وإنْصاف بيْت المالِ مِن أنفُسهم فيما يَسْتَبْطِئُون، مَع أنَّه إن زادَ السِّعْر أَخَذُوا بحصَّتهم مِن فَضْلِ ذلك.

ومِن جِماعِ الأَمْرِ وقِوامِهِ، بإذْنِ اللّهِ، أَن لا يَخْفَى عَلى أَمير المؤمنين شيءٌ مِن أَخْبارِهم وحالاتِهم وباطِنِ أمرِهم بخُراسانَ والعَسْكَرِ والأَطْرافِ، وأنْ يَحتَقِر في ذلك النَّفَقَة، وَلا يَسْتَعين فيه إلاّ بالثِّقاتِ النُّصَّاح، فانَّ تركَ ذلك وأشْباهه أَحَقُّ بتَارِكهِ مِن الاسْتِعانَة فيه بغيرِ الثِّقَة، فتَصِيرُ مغَبَّتُه لِلجَهالَةِ والكَذِب.

رسالة الصحابة

(ص200 ـ 203)

(2) الحسابة: الحساب.

دفـاع عن العـراق

ومِمَّا يُذكَّـر به أَمـيرُ المؤمنينَ ، أَمْتَـعَ اللّهُ به ، أمـرُ هذيْن المِصْرَيْن(1) ، فانَّهم بَعْد أَهْلِ خُراسان أقرَبُ الناسِ إلى أن يكونُوا شِيعَتَه وحَقِيبته(2) ، مع اختِلاطِهم بأَهْل خُـراسانَ ، وأَنهُم منْهُم عامَّتُهم .

إنَّ في أهْـل العِراقِ يـا أَميرَ المُؤمنـينَ مِن الفِقْهِ والعَفـافِ والألْبابِ والألسِنة شَيئًا لا يَكادُ يُشَكُّ أنَّه لَيْسَ في جميع من سِواهُم مِن أهلِ القِبْلَةِ مِثْلَهُ وَلاَ مِثْلُ نِصْفه ، فلَوْ أرادَ أميرُ المُؤمنينَ أَنْ يَكْتفي في جَميعِ ما يُلتَمس له بأهلِ هذه الطَّبَقَةِ مِن النَّاس رَجَوْنا أَنْ يكونَ ذلك فِيهم مَوجُودًا . وَقَد أَزْرَى

«1» البصرة والكوفة

«2» أيَ موضع سرّه.

بأهْلِ العِراقِ في تلك الطَّبَقةِ أنَّ وُلاة العِراقِ فيما مَضَى كانوا أشْرارَ الوُلاةِ ، وأنَّ أعْوانَهُم مِن أَهلِ أَمصارِهم كانوا كذلك ، فَحُمِـل جميعُ أهــلِ العِـراقِ عــلى مـا ظَهَــر مِن أُولئِــك الفُسُول(3) ، وتَعلَّق بذلِك أعْداؤُهم مِن أهْلِ الشَّام فَنَعَوهُ عليهِم . ثُمَّ كانَتْ هذه الدَّوْلة ، فلَم يَتعلَّقْ منْ دُونَكم مِن الوُزَراءِ والعُمَّال إلاّ بالأقْرَبِ فالأقْرَبِ مِمَّن دَنا مِنهم ، أو وَجَدُوه بسبِيلِ شيْءٍ مِن الأمْر ، فَوقَع رِجال مَواقعَ شائنـة لِجَميعِ أهـلِ العِراقِ حَيثـما وَقَعوا مِن صَحـابةِ خَليفـةٍ ، أوْ وِلايةِ عَمَل ، أو مَوضع أمانة ، أو مَوطنِ جِهاد . وكان مِن رأيِ أهْلِ الفضْلِ أن يَقْصِدوا حيث يُلْتَمسون ، فأبْطأَ ذلك بِهِم أنْ يُعرَفُوا ويُنْتفعَ بهم . وإنْ كان صاحِبُ السُّلطانِ مِمّن لم يَعرِفِ النّاس قبْل أنْ يَليَهم ، ثمّ لم يَزلْ يَسْأَلُ عنهم مَن يَعـرِفُهم ويَسْتَثْبِتُ في آستِقصائِهِمْ ، زالَتِ الأُمورُ عنْ مراكِزِها ، ونَزَلت الرِّجالُ عنْ مَنازِلِها؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَلْقونَه إلاّ مُتَصنِّعينَ بأَحسَنِ ما يَقدِرُونَ عليْهِ مِن الصَّمْت والكلامِ . غَيْرَ أنَّ أهْلَ هـذا النَّقْصِ هُم أشَدُّ تَصنُّعًا ، وأحْلى ألْسنةً ، وأرْفَقُ تلَطُّفًا لِلوُزراءِ أو تَمحُّلاً لأنْ يُثْنَى عليهِم من وَرَاء وَراء . فإذا آثَرَ الوالي أنْ يَسْتَخْلِصَ رجُلاً واحِدًا مِمَّنْ لَيْس لذلك أهْلاً ، دَعا إلى نَفْسِه جميعَ ذلك الشَّرْج (4) ، وطمعُـوا فيه ، واجترؤوا عليه ، وَتَوارَدُوه وتَزاحَمُوا على ما عِنْده . وَإذا رَأى ذلك أهْلُ الفَضْلِ

(3) الفسول: الادنياء.

(4) الشرج: المثل والنوع.

كَفُّوا عَنه ، ويباعَدُوا مِنه ، وكرِهُوا أنْ يروْا في غيْر مَوِضعهم ، أَو يُزاحِمُوا غَيْرَ نُظَرائِهم .

رسالة الصحابة

(ص204 ــ 206)

دفـــاع عن الشـــام

ومِمَّا يُذَكِّر به أميرُ المؤمنينَ أهْلُ الشَّامِ ، فإنَّهم أشَدُّ النَّاسِ مَؤُونةً وأخوَفُهم عَداوَةً وبائِقَةً ،(1) ، ولَيْسَ يُؤَاخِذُهم أميرُ المؤمنينَ بالعَداوَةِ ولا يَطمَع مِنهم في الاسْتِجماعِ على المودَّة . فمنَ الرَّأْيِ في أمرِهم أنْ يَخْتَصَّ أميرُ المؤمنينَ مِنهم خاصَّةً مِمَّنْ يَرْجُو عِنْدَه صلاحًا ، أوْ يَعْرِفُ مِنه نَصِيحَةً أوْ وَفاءً ، فإنَّ أولئِكَ لا يَلْبَثُونَ أنْ يَنْفَصِلُوا عن أصحابِهم في الرأْيِ والهوى ، ويَدْخُلوا فيما حُملوا عليْهِ مِن أمرِهم ، فَقَد رَأَيْنَا أَشْبَاهَ أُولئِك مِن أَهْلِ العِراقِ الذينَ اسْتَدْخَلَهُم أهلُ الشام . ولكن أُخِذَ في أَمرِ أهلِ الشام على القِصاصِ : حُرِمُوا كما كانُوا يَحْرِمُونَ النَّاسَ ، وجُعِلَ فَيْئُهم إلى غيْرِهم كما كانَ فَيْءُ غيْرِهم إليهِمْ ، ونُحُّوا عن المَنابِرِ والمَجالِسِ والأعْمالِ ، كما كانُوا

(1) البائقة : الغدر.

يُنَحُّونَ عن ذلك مَنْ لا يَجهلُون فَضْله في السَّابقَةِ والمَواضع ، ومُنِعَتْ مِنهم المرافقُ كما كانُوا يمنعُونَ النَّاسَ أن ينَالُوا مَعَهُمْ أكْلَةً مِن الطَّعامِ الذي يَصْنَعُهُأمراؤهم لِلْعَامَّة .

فانْ رَغِب أميرُ المؤمِنِينَ لنَفسه عنْ هذه السِّيرَة وما أشبهها ، فلم يُعارِضْ ما عابَ ، ولم يُمثِّلْ ما سَخِط ، كان العَدْلَ أن يقْتَصرَ بهم على فَيئهم ، فَيجعَل ما خَرَج مِنْ كُوَر الشام فضلاً من النفقات ، وما خرج من مِصرَ فضْلاً من حُقُوقِ أهْل المدينة ومكّة بِأنْ يَجعَلَ أمِيرُ المؤمنين ديوانَ مُقَاتلتهم دِيوانَهم ، أو يزيد أو يَنْقُص ، غيرَ أنَّه يأْخذُ أهْل القُوَّةِ والغَنَاءِ بخفَّةالمؤونة والخِفّةِ في الطَّاعةِ ، ولا يُفَضِّلُ أحَدًا منهم على أحَدٍ إلَّا على خاصَّةٍ معْلُومةٍ . ويكونُ الدِّيوانُ كالغَرَضِ المُستأنَف . ويأْمرُ لكلِّ جُنْدٍ من أجْنادِ الشَّام بعُدَّةٍ من العِيَالــة (2) يَقْتَرِعُــونَ عليها، ويسوِّي بَينهم فيمــا لمْ يكونـــوا أسْوةً فيه فيما مان من عيالتهم، فلا يُضيِّعُ أحدٌ مِن المُسْلِمِينَ.

رسالة الصحابة

(ص210 ــ 212)

(2) العيالة : الكفاية من المؤن.

دفـــاع عن قريـــش

وَإنَّ أمْرَ هذه الصَّحابةِ قد كان فيه أعاجيبُ دَخَلَتْ فيها مَظالِم . أَمَّا العَجَبُ فقد سَمِعْنا مِن النَّاسِ مَن يقول: ما رَأَيْنا أُعْجوبَةً قَط أعْجَبَ مِن هـذه الصَّحابـةِ ، ممَّن لا يَنْتَهي إلى أدَبِ ذي نباهَـةٍ ، ولا حَسَبٍ مَعْـرُوف ، ثمَّ هُـوَ مَسْخـوط الرَّأْيِ ، مَشهُورٌ بالفُجُور في أهلِ مِصْره ، قَدْ غَبر عامَّة دَهْره صانِعًا يَعْمَلُ بيَدِهِ ، ولا يَعْتَدُّ مع ذلك ببَلاءٍ ولا غَنَاءٍ ، إلاَّ أَنَّهُ مَكَّنهُ مِن الأمرِ صاغٍ ، فانْتَهَى إلى حيثُ أَحَبَّ ، فصارَ يُؤْذَنُ لهُ على الخليفة قَبْلَ كَثيرٍ مِنْ أبْناء المُهَاجِرينَ والأنْصار ، وَقَبلَ قَرابَةِ أمير المؤمنين وَأهْلِ بُيُوتاتِ العَرَب ، ويُجْرَى عليه مِن الرِّزْقِ الضِّعْفُ ممَّا يَجْرِي على كَثِيرٍ من بني هاشمٍ وغَيْرهم من سَرَواتِ قُرَيش ، ويُخْرَج له من المَعُونَةِ على نحوِ ذلك . لَمْ يَضَعْه بهذا المَوْضِع رِعايَةُ رَحم ، ولا فِقْهٌ في دِينٍ ، ولا بَلاءٌ في مُجاهَدَةِ عَـدُوّ مَعْروفـةٍ ماضيـةٍ شائعـةٍ قديمـةٍ ، ولا غَنـاءٌ

حَديث، ولا حاجــة إليــه في شيء من الأشيــاء، ولا عُدَّة يَسْتعِــدُّ بها ، ولَيْسَ بفارِس ولا خطِيبٍ ولا عَلَّامةٍ ، إلا أنَّه خَـدَمَ كاتِبًا أو حاجِبًا ، فأَخْبَرَه أنَّ الدِّين لا يقُومُ إلَّا به ، حتَّى كَتَبَ كيفَ شاءَ ، ودَخَلَ حيْثُ شاء .

وأمَّا المَظْلَمـةُ التي دَخَلَت في ذلك فعَـظِيمةٌ ، قَـدْ خَصَّت قُرَيشًا ، وعَمَّت كثـيرًا من النَّاس ، وأدْخَلَت عـلى الأَحساب والمروءاتِ مِحْنَةً شديدةً وضيَاعًا كثِيرًا؛ فإنَّ في إذْن الخليفة في المَدْخل عليه والمجْلس عِنْدَهُ ، ومـا يُجْرِي عـلى صَحَابَتِـه من الرِّزْقِ والمعُونةِ ، وتَفْضيل بَعْضهم على بعْضٍ في ذلك ، حُكْمًا عظيمًا على النَّاسِ في أنسابِهِمْ وأخطارِهم وبـلاءِ أهْل البَـلاءِ منهم . ولَيْسَ ذلِـكَ كَخَـواصِّ المعْـرُوفِ ولَـطِيفِ المَنَـازِلِ أو الأعمال يَخْتصُّ بها المَوْلى مَنْ أَحَبَّ ، ولكنَّه بابٌ مِن القَضَاءِ جَسيم عامٌّ ، يُقْضى فيهِ للْماضين مِنْ أهْلِ السَّوابق ، والبَاقِين منْ أهْلِ المآثِرِ ، وأهْلِ البَلاءِ والغنَاءِ ، بالعَدْلِ أو بما يُخالُ فيه عليهم ، فإنَّ أحَقَّ المظالِمِ بِتَعجِيلِ الرَّفْعِ والتَّغْيِيرِ ما كانَ ضرُّهُ عائبًا ، وكانَ لِلسُّلطانِ شائنًا ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ في رَفْعِهِ مَؤُونَةٌ ولا شَغَبٌ ولا تَوْغِيرٌ لصُـدُورٍ عامَّـة ، ولا للقَسْوَةِ والإضرار سَبَب .

رسالة الصحابة

(ص215 ــ 217)

دفـــاع عن الحجـــاز

وَمِما يُذَكَّرُ بِهِ أميرُ المؤمنين جَزيرة العَرَبِ مِنَ الحِجازِ واليمن واليمامةِ وما سِوَى ذلك ، أنْ يَكونَ من رَأيِ أميرِ المؤْمنِينَ ، إذا سَخَتْ نفْسُه عنْ أمْوالها مِنَ الصَّدقاتِ وغيرها ، أنْ يَخْتَارَ لولايتِها الخِيَارَ منْ أهْلِ بَيْتِهِ وَ غَيرهِمْ؛ لأنَّ ذَلِك مِن تَمامِ السِّيـرَةِ العَادِلـةِ ، والكَلِمَةِ الحسنـة التي قَـد رَزَقَ اللّه أمـيرَ المُؤمِنين وأكرَمهُ بها مِن الرأْيِ الذِي هُو بِإذنِ اللّه حِمىً ونِظَامٌ لهذهِ الأمورِ كُلِّهَا في الأمْصَارِ والأجْنَاد والثُّغُورِ والكُوَر .

إنَّ بِالنَّاسِ من الاسْتِجراح (1) والفَسَادِ ما قَدْ علمَ أمِيرُ المؤْمنينَ ، وبِهِمْ من الحاجَةِ إلى تَقْوِيم آدابهم وطرائقهم ما هُو أشدُّ من حاجتهم إلى أقواتِهم التي يَعِيشُونَ بها . وأَهْلُ كلِّ

(1) الاستجراح: الفساد والعيب.

مِصْرٍ وجُنْدٍ أو ثَغْرٍ فُقَراءُ إلى أنْ يكونَ لهم من أهْلِ الفِقْهِ والسُّنَّةِ والسِّيَرِ والنَّصِيحَةِ مُؤدِّبونَ مُقَوِّمُونَ ، يُذَكِّرُون ، ويُبَصِّرُونَ الخَطَأَ ، ويَعِظُونَ عن الجهل ، ويَمْنَعُون عن البِدع ، ويُحَذِّرُون الفِتَن ، ويَتَفَقَّدُون أُمور عامَّةِ مَن هُو بَيْنَ أظهرهم حَتى لا يَخْفَى عليهم منها مُهِمّ ، ثُمَّ يستَصْلِحُونَ ذلِك ، ويُعَالِجُونَ ما اسْتَنكروا منهُ بالرّأيِ والرِّفْقِ والنُّصْحِ ، ويَرْفَعونَ ما أعياهم إلى ما يَرْجُونَ قُوَّتَهُ عليهم ، مُأْمُونِينَ على سَيْرِ ذلك وتَحْصِينِه ، بُصَراءَ بالرّأيِ حِينَ يَبْدُو ، وَأطِبَّاءَ باستئصاله قبلَ أنْ يَتَمَكَّن .

رسالة الصحابة

(ص223 ــ 221)

مختارات من كليلة ودمنة

من مقدمة الكتاب

قَدَّمَها بَهْنُودُ بَنُ سَحْوَانَ ويُعْرَفُ بِعَلِّي بن الشَّاهِ الفارِسيِّ ذَكَرَ فِيها السَّبَب الذي مِنْ أجْلِهِ عَمِلَ بَيْدَبَا الفَيْلَسُوفُ الهِنْديُّ رَأسُ البَراهِمَةِ(1) لِدَبْشَليم مَلِكِ الهِنْد كِتابَهُ الذى سَمّاهُ كَلِيلَةَ ودِمْنَة؛ وجَعَلَهُ عَلَى أَلْسُنِ البَهائمِ والطَّيْرِ، صِيَانَةً لِغَرَضِهِ فِيهِ مِنَ العَـوَامِّ، وضنًّا بمـا ضَمَّنَهُ عَنِ الـطَّغَامِ (2)، وَتَنْـزِيهـا لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا، وَمَحَاسِنِهَا وَعُيُـونِهَا(3). إذْ هِيَ لِلْفَيْلَسُوفِ مَنْدُوحَةٌ (4)، ولخاطِرِه مَفْتُوحةٌ، ولمحبِّيهَا تَثْقِيفٌ، وَلطالبيها

---

(1) البراهمة:

« 2 » الضنّ بالفتح والكسر: البخل والطغام بالفتح. الأوغاد والأرذال.

«3 » عيونها: خيارها.

« 4 » المندوحة والمنتدح: السّعة والفسحة.

تشرِيفٌ . وذَكَرَ السَّبَبَ الذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ بنُ قُبَاذَ بنِ فَيْرُوزَ مَلِكُ الفُرْسِ بَرْزَوَيْهِ رَأْسَ الأَطِبَّاءِ إلى بِلَادِ الهِنْدِ ، لِأَجْلِ كَلِيلَةَ ودِمنةَ؛ وَما كَانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوَيْهِ عِنْدَ دُخُولِهِ إلى الهِنْدِ ، حَتَّى حَضَرَ إليهِ الرَّجُل الذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرًّا مِنْ خِـزَانَةِ المَلِكِ لَيْـلاً ، مَعَ مـا وَجَـدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الهِنْدِ . وَقَدْ ذَكَرَ الذِي كَانَ مِنْ بَعْثَةِ بَرْزَوَيْهِ إلىٰ مَمْلَكَةِ الهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هذَا الكِتَابِ؛ وَذَكَرَ فِيها مَا يَلْزَمُ مطَالِعَهُ مِنْ إتْقَانِ قِرَاءَتِهِ ، والقِيَامِ بِدِراسَتِهِ ، والنَّظَرِ إلى بَاطِنِ كلَامِهِ؛ وأَنَّهُ إنْ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الغَايَةِ مِنْهُ . وذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرْزَوَيْهِ وقِرَاءَةَ الكِتَابِ جَهْرًا . وقَدْ ذَكَر السَّبَبَ الذِي مِنْ أجْلِهِ وضَعَ بزُرْجَمِهْر (5) بَابًا مُفْرَدًا يُسمَّى بَابَ بَرْزَوَيْـهِ المتَطَبِّبِ . وَذَكَرَ فيهِ شَأنَ بَرزوَيْهِ منِ أوَّلِ أمْرِهِ وآنِ مَوْلِدهِ ، إلى أنْ بلغَ التَّأديبَ وأَحَبَّ الحِكْمةَ وآعْتبَرَ(6) في أقْسَامِهَا ، وجَعلَهُ قَبْلَ بابِ الأسدِ والثَّورِ الذِي هُو أَوَّلُ الكتَابِ .

(66 _ 65)

(5) وزير كسرى؛

(6) اعتبر : نظر .

بيدبا وتلامذته

وكان في زمانه (1) رجل فيلسوف من البراهِمةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ ، ويُرْجَعُ في الأُمورِ إلى قوْلِهِ ، يُقالُ لَهُ بَيْدَبَا فلَمَّا رَأى الملكَ وَما هُو عليْهِ منَ الظُّلْمِ للرَّعِيَّةِ ، فَكَّر في وَجْهِ الحِيلَةِ في صَرْفِهِ عمَّا هُو عَليْهِ ، ورَدِّهِ إلى العَدْلِ والإنْصافِ؛ فَجَمعَ لذلكَ تَلاميذَهُ ، وقَالَ: أتَعْلَمُونَ مَا أُريدُ أَنْ أُشاوِرَكُم فِيه؟ اعْلَمُوا أنِّي أطلْتُ الفِكْرَةَ في دَبْشَليمَ ، ومَا هُو عَليْهِ منَ الخُرُوجِ عَنِ العَدْلِ ، ولُزُومِ الشرّ ، ورَدَاءَةِ السِّيرَةِ ، وسُوءِ العِشْرَةِ معَ الرَّعِيَّةِ ، ونَحْنُ ما نَروض (2) أَنْفُسَنَا لمِثْلِ هذِهِ الأُمورِ إذا ظَهرَتْ مِنَ المُلوكِ إلاّ لِنَرُدَّهمْ إلى

(1) ملك ظالم في الهند هو دبشليم

(2) من قولهم رضت الدابة أروضها : مهدتها وذللتها ، ويريد نوطن أنفسنا .

فِعْلِ الخيْر، ولُزُومِ العَدْلِ ومَتى أغفَلْنـا ذلك وأَهْمَلْنـاهُ لَزِمَ وُقُوعُ المكْرُوهِ بِنَا، وبُلُوغُ المحْذُوراتِ إلَيْنَا، إذْ كنّا في أنْفسِ الجُهَّالِ أجْهَلَ مِنْهُمْ، وفِي العُيُونِ عِندَهُمْ أقَلَّ مِنْهُمْ. ولَيْسَ الرَّأيُ عِنْدي الجلاءَ عنِ الوَطَنِ؛ ولاَ يَسَعُنَا في حِكْمَتِنَا إبْقَاؤُهُ عَلى مَا هُو عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرَةِ وقُبْحِ الطّرِيقَةِ. ولا يُمْكِنُنا مُجاهَدَتُهُ بغَيْرِ ألْسِنَتِنَا. ولَوْ ذَهَبْنَا إلى أنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تتهَيَّأْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ. وإنْ أحَسَّ مِنّا مُخالَفَتَهُ وإنكارَنَا سوءَ سيرَتِهِ كانَ في ذلك بَوارُنَا (3). وَقَدْ تَعَلمُون إنَّ مُجاوَرةَ السَّبُعِ والكَلْبِ والحَيَّةِ والثَّوْرِ عَلى طِيبِ الوطَنِ ونَضَارَةِ «4» العَيْشِ، لغَدْرٌ بالنَّفْسِ، وإنَّ الفَيْلَسُوفَ لَحَقِيقٌ أنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إلى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نوازِلِ المَكْروهِ ولَوَاحِقِ المحْذُورِ؛ ويَدْفَعِ المُخوفَ لاسْتِجْلاَبِ المحْبُوبِ. ولَقَدْ كُنتُ أسْمَعُ أنَّ فَيْلَسُوفاً كَتَبَ لِتِلْمِيذِهِ يَقُولُ: إنَّ مُجاوِرَ رِجالِ السُّوءِ ومُصَاحِبَهُمْ كَراكِبِ البَحْرِ: إنْ سَلِمَ منَ الغَرَقِ لَمْ يَسلَمْ مِنَ المخَاوِفِ. فإذا هُو أوْرَدَ نفسهُ مَوارِدَ الهَلَكاتِ، ومَصَادِرَ المخُوفَاتِ، عُدَّ مِنَ الحَميرِ التِي لاَ نَفْسَ لهَا، لأنَّ الحيَوانَاتِ البَهِيمِيَّةَ خُصَّتْ في طَبَائِعِهَا بمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ، وتَتوَقّى المكْرُوهَ: وذلِكَ أنّنا لَمْ نَرَهَا تُورِدُ أنْفُسَهَا مَوْرِدًا فيهِ هَلَكتها وأنَّهَا مَتى أشْرَفَتْ عَلى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا التِي رُكِّبت فِيهَا ــ شُحًا(5) بِأنْفُسِهَا وصِيَانَةً لَهَا ــ إلى النُّفُورِ والتَّبَاعدِ عَنْهُ.

---

(3) هلاكنا.

(4) حسن العيش.

«5» الشحّ: البخل.

وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لهذَا الأمْر لِأَنَّكُمْ أُسْرَتِى وَمَكانُ سِرِّى ، ومَوْضِعُ مَعْـرِفَتِى؛ وبِكُمْ أَعْتَضِـدُ ، وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِـدُ فـإِنَّ الـوحِيـدَ في نَفْسِهِ ، والْمُنفرِدَ برَأْيِهِ حَيْثُ كانَ فَهُوَ ضائِعٌ وَلا نَاصِرَ لَهُ. على أَنَّ العاقِلَ قَد يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ ما لا يبْلُغُ بالخَيْلِ والجُنودِ. والمَثَلُ في ذلكَ أَنَّ قُبَّـرَةً (6) اتخَـذتْ أُدْحيـةً (7) وبـاضَتْ فِيهَـا عَلَـى طِريقِ الفِيلِ ؛ وَكانَ لِلفِيلِ مشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إليْهِ . فَمرَّ ذاتَ يَوْمٍ عَلى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ ، فَوَطِىءَ عُشَّ القُبَّرَةِ وهشَّمَ بَيْضهَا ، وقَتَلَ فِراخَهَا فَلَمَّا نَظَرَتْ ما ساءَهَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الذِى نَالَهَا مِنَ الفِيلِ لا مِنْ غَيْرِهِ . فَطَارَتْ فَوَقَعَت عَـلَى رَأْسِهِ بـاكِيَةً؛ ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا الملِكُ لِمَ هشَّمْتَ بَيْضِي؟ وَقَتَلْتَ فِـراخِي وأَنا في جِوارِكَ؟ أَفَعَلْتَ هذَا اسْتصْغارًا مِنْكَ لأمْرِى ، واحْتِقَارًا لِشَأْنى؟ قالَ: هُو الذِى حَمَلَنِي عَلى ذلكَ. فَتركَتْـهُ وٱنْصَرَفَتْ إلى جَمـاعَةِ الطَّيْرِ؛ فَشَكَت إليْهَا ما نالَهَا مِنَ الفِيلِ فَقُلْنَ لَهَا: وَ مَا عَسى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ ، ونَحْنُ طُيُورٌ؟ فَقَالتْ لِلعقَاعِقِ (8) والغِربَانِ: أُحبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِى إلَيْهِ فَتَفْقَأن عَيْنَيْهِ؛ فإنى أَحْتالُ لهُ بَعد ذلكَ بحيلَةٍ أُخرى. فأَجَبْنَهَا إلى ذلِك ، وذَهَبْنَ إلى الفِيلِ ، ولَمْ يَزلْنَ يَنقُرْنَ عَيْنَيْهِ حتَّى ذَهَبْنَ بها . وبَقِيَ لا يَهْتَدِى إلى طريقِ مَطعَمِـه وَ مَشْرَبِهِ إلاّ مـا يَقُمُّهُ مِنْ مَـوْضِعِهِ (9). فَلَمَّا

---

(6) القبرة : نوع من العصافير .

(7) الأدحية بضم الهمزة وتكسر : مبيض النعامة في الرمل ، لانها تدحوها برجلها أي تفحصها ثم أطلقت هنا على مبيض القبرة .

(8) جمع عقعق وهو طير أبلق بسواد وبياض.

(9) قم الشيء : كنسه ، وقمت الشاة وغيرها : أكلت ما على الأرض .

عَلِمَتْ ذلِكَ منْهُ ، جَاءَتْ إلى غَديرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ كَثِيرَةٌ ، فَشَكَتْ إلَيْها ما نَالَهَا مِنَ الفِيلِ . قَالَتِ الضَّفَادِعُ: مَا حِيلَتُنَا نَحنُ في عِظَمِ الفِيلِ؟ وَ أَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ؟ قالت: أُحِبُّ منْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إلى وَهْدَةٍ « 10 » قَرِيبَةٍ مِنْهُ فتنقُقن فِيهَا وَتَضْجِجْنَ . فَإِنَّهُ إذا سَمِعَ أَصْوَاتَكُنَّ لَمْ يَشُكَّ في الماء فَيَهْوِيَ فِيهَا . فَأَجَبْنَهَا إلى ذلِكَ وَآجتَمَعْنَ في الهَاوِيَةِ فَسَمِعَ الفِيلُ نَقِيقَ الضَّفَادِعِ وقَدْ أَجْهَدَهُ العَطَشُ ، فَأَقْبَلَ حتَّى وَقَعَ في الوَهْدَةِ فَآرْتَطَمَ « 11 » فِيهَا .

وَجَاءَتِ القُبَّرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ؛ وَقَالَتْ: أَيُّها الطَّاغِي المُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ ، المُحْتَقِرُ لِأَمْرِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ؟

(ص 74 ــ 78).

---

(10) الوهدة: المنخفض من الارض ومثلها الهوة.

(11) وقع.

نصيحة بيدبا للسلطان وتأثيرها في نفسه

أيُّها المَلِكُ! إنّكَ في مَنازِلِ آبائِكَ وَأَجْدادِكَ مِنَ الجَبابِرَةِ الـذينَ أَسَّسُوا المُلْكَ قَبْلَكَ ، وَشَيَّدُوا دُونَكَ ، وَبَنَـوا القِلاعَ والحُصُـونَ ، وَمَهَّدُوا البِـلادَ ، وَقَادُوا الجُيُـوشَ،وَاسْتَجَاشُوا(1) العُـدَّةَ ، وَطَـالَتْ لَهُمُ المُـدَّةُ ، وَاسْتَكْـثَرُوا مِنَ السِّـلاحِ وَ الكُرَاعِ (2) ، وَعَاشُوا الدُّهُورَ في الغِبْطَةِ (3) والسُّرُورِ . فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِـكَ مِنَ اكْتِسَابِ جَمِيـلِ الـذِّكْـرِ ، وَلاَ قَـطَعَهُمْ مِنَ اغْتِنَـامِ الشُّكْرِ ، وَلاَ اسْتِعْمَـالِ الإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خُـوِّلُـوهُ ، « 4 » والارفاق بمن وَلُوه وَحُسْنِ السِّيـرَةِ فِيما تَقَلَّدُوهُ ، مَـعَ عِظَـمِ مَا كَانُـوا عَلَيْـهِ مِنْ غرَة (5) المُـلْكِ وَسَكْـرَةِ الاقْتِـدَارِ. وَإِنَّكَ

---

(1) يقال استجاش الجيش: جمعه واستجاش فلانا: استشاره وطلب منه جيشا ومددا يتقوى به.

(2) الكراع بالضم: اسم يجمع الخيل، وقيل الخيل والسلاح.

(3) الغبطة: هنا حسن الحال.

(4) من قولهم خوّله الله الشيء تخويلا : ملكه اياه.

(5) الغرة بالكسر: اسم من الاغترار.

أَيُّهَا المَلِكُ ـ السَّعِيدُ جَدُّهُ ، الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ ـ قد وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ ، وَدِيَارَهُمْ ، وَأَمْوَالَهُمْ ، وَمَنَازِلَهُمْ التي كانَتْ عُدَّتَهم . فَأَقَمْتَ فِيما خُوِّلْتَ مِنَ المُلْكِ وَوَرِثْتَ مِن الأَمْوالِ والجُنُودِ؛ فَلَم تَقُمْ في ذَلِكَ بِحَقٍّ ما يَجِبُ عَلَيْكَ . بَلْ طَغَيْتَ ، وبَغَيْتَ ، وَعَتَوْتَ ، وعَلَوْتَ عَلَى الرَّعِيةِّ ، وَأَسَأْتَ السِّيرَةَ ، وعَظُمَتْ مِنكَ البَلِيَّةُ . وكانَ الأَوْلَى والأَشْبَهَ بِكَ (6) أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ ، وَتَتَّبِعَ آثارَ المُلُوكِ قَبْلَكَ ، وَتَقْفُوَ (7) مَحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ ، وَتُقْلِعَ (8) عَمَّا عَارُهُ لازِمٌ لَكَ ، وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ بِكَ ، وَتُحسِنَ النَّظَرَ بِرَعِيتَّكَ ، وَتَسُنَّ لَهُمْ سُنَنَ الخَيْرِ الذي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ ، وَيُعْقِبُكَ الجَميلَ فَخْرُهُ؛ وَيَكُونُ ذلِكَ أَبْقى عَلى السَّلامَةِ ، وَأَدْوَمَ عَلى الاِسْتِقَامَةِ . فإنَّ الجَاهِلَ المُغْتَرَّ من اسْتَعْمَلَ في أُمورِهِ البَطَرَ وَ الأُمْنِيَّةَ، وَ الحَازِمَ اللبِيبَ مَنْ ساس المُلْكَ بالمُدَاراةِ و الرِّفقِ . فانظُرْ أَيُّهَا المَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إلَيْكَ ، وَلَا يَثْقُلَنَّ ذَلك عَلَيْكَ . فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بهذا ابْتِغاءَ عَرَضٍ (9) تُجَازِيني بِهِ ، وَلاَ التِمَاسَ مَعْرُوفٍ تُكافِئُنِي فِيهِ . وَلَكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ.

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبا مِنْ مَقَالَتِهِ وَقَضى مُنَاصَحَتَهُ ، أَوْغَرَ صَدرَ

(6) من أشبه الولد أباه: اذا شاركه في صفة من صفاته.

(7) تتبع.

(8) تكف وتنزع.

(9) العرض محركة: المتاع، أو حطام الدنيا، أو المال، أو الغنيمة.

الملِك (10)، فأَغْلَـظَ لَهُ (11) في الجَـوابِ اسْتِصغـارًا لأَمْـرِه، وقال: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلامٍ مَا كُنت أظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَملَكَتِي يَسْتَقْبِلُني بِمِثْلِهِ، وَلاَ يُقْدِمُ على ما أَقْدَمْتَ عَلَيهِ، فَكَيْفَ أَنْتَ مَع صِغَرِ شَأْنِكَ، وَضَعْفِ مُنَّتِكَ (12)، وَعَجزِ قُوَّتِكَ؟ وَلَقَـدْ أَكْثَـرْت إعْجَـابِي مِنْ إقْـدَامِـكَ عَـلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ (13) بِلِسَانِكَ، فِيما جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ، وَمَا أَجِدُ شَيْئًا في تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ فَذلِك عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَـرُومَ مَـا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ المُلُوكِ إذا أَوْسَعُـوا لَهُمْ في مَجَالِسِهِمْ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أنْ يُقتَلَ ويُصْلَبَ.

(ص 87 ـ 89)

---

(10) أوغر قلبه: ملأه غيظا.

(11) أي عنفه.

(12) قوتك.

(13) أي التطاول. وهو من السلاطة. والسليط: طويل اللسان حاده، أو اللسن الفصيح ولكنها هنا للذم.

من واجبات العلماء

ثُمّ إنّ بَيْدبَا لَمّا أخلى فِكْرهُ مِنَ اشْتِغالِهِ بِدَبْشلِيم تَفرَّغ لِوَضْعِ كُتُبِ السِّياسَةِ ونَشِطَ لَهَا (1) . فعَمِلَ كُتُبًا فِيهَا دَقائِقُ الحِيَلِ . ومَضى الملكُ عَلى ما رَسَم لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ وَ العَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ . فرَغِبَتْ إِلَيْهِ المُلُوكُ الذِينَ كانُوا فِي نواحِيهِ ، وانْقَادَتْ لَهُ الأُمُورُعَلى اسْتِوَائِهَا ، وفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . ثُمّ إنّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلامِيذَهُ فَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ ، وَوعَدَهُمْ وَعْدًا جَميلاً ، وقَالَ لَهُمْ: لَسْتُ أشُكُّ أَنّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَ قْتَ دُخُولِي عَلى المَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ: إنّ بَيْدَبَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ ، وبَطَلَتْ فِكرَتُهُ إذْ عَزَمَ عَلى الدُّخُولِ عَلى هذا الجَبّارِ الطّاغِي . فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي ، وصِحَّةَ فِكْرِي . وإنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلاً بِهِ ، لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الحُكَماءِ

(1) خف وأسرع اليها.

قَبْلي تَقُولُ: إنَّ المُلُوكَ لَهَا سَورَةٌ كَسَوْرَةِ (2) الشَّرَابِ . فَالمُلُوكُ لاَ تَفِيقُ مِنَ السَّوْرَةِ إلّا بِمَوَاعِظِ العُلَمَاءِ، وأَدَبِ الحُكَماءِ. والوَاجِبُ عَلى المُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَواعِظِ العُلَمَاءِ. وَالواجِبُ عَلَى العُلَمَاءِ تَقْويمُ المُلُوكِ بأَلْسِنَتِهَا ، وتَأْدِيبُهَا بِحِكْمَتِهَا وإظْهَارِ الحُجَّةِ البَيِّنَةِ اللاّزمَةِ لَهُمْ ، لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الاعْوِجَاجِ والخُرُوجِ عَنِ العَدْلِ . فَوَجَدْتُ مَا قَالَتِ الحُكَمَاءُ فَرْضًا واجِبًا عَلى الحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِم ، لِيُوقِظُوهُم مِنْ رَقْدَتِهِمْ ، كالطَّبِيبِ الذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الأَجسادِ عَلى صِحَّتِهَا ، أَوْ رَدُّهَا إِلى الصِّحَّةِ . فَكَرِهْتُ إنْ يَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ ، ومَا يَبْقَى عَلى الأَرْضِ إلاّ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ الطَّاغِي ، فَلَمْ يَرُدَّه عَمّا كانَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ قَالَ قائِلٌ: إنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كلاَمُهُ خَوْفًا عَلى نَفْسِهِ ، قالُوا : كانَ الهَرَبُ مِنْهُ ومِنْ جِوَارِهِ أَوْلى بِهِ . والانْزِعَاجُ (3) عَنِ الوطَنِ شَدِيدٌ . فَرَأَيْتُ أنْ أَجُودَ بِحَياتِي فأكُونَ قَدْ أَتَيْتُ فيما بَيْنِي وبَيْنَ الحُكَمَاءِ بَعْدِي عذْرًا . فحَمَلْتُها على التَّغْرِيرِ (4) أوِ الظَّفَرِ بِمَا أُرِيدُهُ . وَ كانَ مِنْ ذَلِكَ ما أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ . فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ الأَمْثَالِ : إنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إلاّ بإِحْدَى ثَلاَثٍ: إمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَ إمّا بِوَضِيعَةٍ (5) في مالِهِ ، أَوْ وَكْسٍ (6) فِي دِينِهِ . وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ (ص 95 ـ 97) .

(2) السورة للخمرة: حدّتها وفورتها.

(3) الانزعاج: الانقلاع ويريد منه الارتحال

(4) التغرير: تعريض النفس للهلكة. ويريد: أما أن تقبر وأما أن تظفر.

(5) الوضيعة : الخسارة.

(6) الوكس: النقص.

تأليف كليلة ودمنة

وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيما يَعْمَلُهُ في بَابِ الكتَابِ حَتّى وَضَعَهُ عَلى الانْفِرَادِ بنَفْسِهِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ تَلَامِيذِهِ كانَ يَثِقُ بِهِ ، فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا مَعَهُ ، بَعْدَ أَنْ أعَدَّ مِنَ الوَرَقِ الذِي كانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الهِنْدُ شَيْئًا ، وَمِنَ القُوتِ مَا يَقُومُ بِهِ وَبِتِلْميـذِهِ تِلْكَ المُدَّةَ ، وَجَلَسَـا في مَقْصُورَةٍ وَرَدَّا عَلَيْهـمَا البَابَ . ثُمّ بَـدَأَ في نَـظْمِ الكِتَابِ وَ تَصْنِيفِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتِلْمِيذُهُ يَكْتُبُ ويرجّعُ هُو فِيهِ ، حَتّى اسْتَقَرَّ الكِتَابُ عَلى غَايَةِ الإتْقَانِ وَالإحْكـامِ ، وَرَتَّبَ فِيهِ أرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا: كلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ . وَ في كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالجَوَابُ عَلَيْهَا؛ لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ مِنَ الهِـدَايَةِ. وَضَمَّنَ تِلْكَ الأَبْـوَابَ كِتَابًـا وَاحِدًا ، وسَمَّـاهُ (كليلة ودِمْنَةَ) ثُمَّ جَعلَ كلاَمَهُ عَـلَى ألْسُنِ البهَائمِ والسِّبَـاعِ والطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لَهْوًا لِلْخَواصِّ وَالعَوَامِّ ، وبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لعُقُولِ الخَاصّةِ . و ضَمَّنَهُ أيْضًا ما يَحْتَاجُ إليـه الإنسَانُ منْ سِيـاسَةِ

نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخاصَّتِهِ ، وَجَميعِ مَا يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَآخِرَتِهِ وَأُولاهُ ، وَيَحُضُّهُ على حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ ، وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَه . ثمّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسْمِ سَائِرِ الكُتُبِ التِي بِرَسْمِ الحِكْمَةِ ، فَصَارَ الحَيَوانُ لَهْوًا وَمَا يَنْطِقُ بِهِ حِكَمًا وَأَدَبًا .

فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الكِتَابِ وَصْفَ الصَّدِيقِ وَكَيْفَ يَكُونُ الصّدِيقَانِ وَكَيْفَ تُقْطَعُ المَوَدَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةِ ذِي النَّمِيمَةِ . وأَمَرَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كانَ المَلِكُ قَد شَرَطَهُ في أَنْ جعلَهُ لَهْوًا وَحِكْمَةً ، فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ الحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلامُ النَّقَلَةِ أَفْسَدَهَا ، وَجُهِلَتْ حِكْمَتُهَا . فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يُعْمِلانِ الفِكْرَ فِيمَا سَأَلَهُ المِلك ، حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا العَقْلُ أَنْ يكُونَ كلامُهُمَا عَلى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ . فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ والهَزْلِ بِكَلامِ البَهَائِمِ . وَكَانَتِ الحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ . فَأَصْغَتِ الحُكَمَاءُ إلى حِكَمِهِ ، وَتَرَكُوا البَهَائمَ واللَّهْوَ ، وعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ في الذِي وُضِعَ لَهُمْ ، وَمَالَتْ إِلَيْهِ الجُهَّالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ ، وَلَمْ يَشُكُّوا في ذلِكَ ، وَاتَّخَذُوهُ لَهْوًا وَتَرَكُوا مَعْنَى الكَلامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الغَرَضَ الذِي وُضِعَ لَهُ لأَنَّ الفَيْلَسُوفَ إِنَّمَا كانَ غَرَضُهُ فِي البَابِ الأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَدُ المَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ عَلى التَّحَفُّظِ مِنْ أَهْلِ السِّعَايَةِ ، والتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ العَداوَةَ بَيْنَ المتَحابَّين ، لِيَجُرَّ بِذَلكَ نَفْعًا إلى نَفْسِهِ .

« ص 101 ـ 103 »

باب عرض الكتاب

هَذَا كِتَابُ كَلِيلَةَ ودِمْنَةَ وَهُوَ مِمَّا وَضَعَتهُ عُلَمَاءُ الهِنْدِ مِنَ الأَمثَالِ وَالأَحَادِيثِ التِي أُلهِمُوا أنْ يُدْخِلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجدُوا مِنَ القَوْلِ فِي النَّحْوِ الذِي أرَادُوا . وَلَمْ تَزَلِ العلَمَاءُ مِنْ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَلْتَمِسُونَ أنْ يُعْقَلَ عَنهُم ، وَيَحْتَالُونَ فِي ذَلِكَ بِصُنُوفِ الحِيَلِ ، وَيَبْتَغُونَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلَلِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ العِلَلِ وَضْعُ هذا الكِتَابِ عَلى أفْوَاهِ البَهَائم وَالطَّيْرِ ، فَاجْتَمعَ لَهُمْ بِذَلِكَ خِلالُ . أمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُنْصَرَفًا فِي القَوْلِ ، وَشِعَابًا يَأْخُذُونَ مِنْهَا . وَأمَّا الكتَابُ فَجمَعَ حِكْمَةً وَلَهْوًا، فَاخْتَارَهُ الحكَمَاءُ لِحكْمَتِهِ ، وَالسُّفَهَاءُ لِلَهْوِهِ ، وَالمُتَعَلِّمُ مِنَ الأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حفْظِ مَا صارَ إِليْهِ مِنَ أمْرٍ يُرْبَطُ فِي صَدْرِهِ وَلاَ يَدْرِى مَا هُو ، بَلْ عَرَفَ أنَّهُ قَد ظَفِرَ مِنْ ذَلك بِمكْتُوبٍ مَرْقُومٍ ، وكَانَ كَالرَّجُلِ الذِى لَمَّا اسْتَكْمَلَ الرُّجُولِيَّةَ وَجدَ أَبَوَيْهِ قَد كَنَزَا لهُ كُنوزًا وَعَقَدَا لَهُ عُقُودًا ، اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الكَدْحِ

فيمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أمْرِ مَعِيشَتِهِ فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الحِكْمَةِ عَنِ الحَاجةِ إلى غَيْرِهَا مِنْ وُجُوهِ الأَدبِ.

وَيَنْبَغِى لِمَنْ قَرَأَ هذا الكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الوُجوهَ التي وُضعتْ لَهُ، وَإِلى أيِّ غَايَةٍ جَرَى مُؤَلِّفُهُ فِيهِ عِنْدَمَا نَسَبَهُ إلى البَهَائِمِ، وَأَضَافَهُ إلى غير مُفْصِحٍ، وَغَيْرَ ذلِكَ مِنَ الأَوْضَاعِ التي جَعَلَهَا أَمْثَالاً. فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذلِكَ لَمْ يَدْرِ مَا أُرِيدَ بِتِلْكَ المعَانى، وَلاَ أيَّ ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا، وَلاَ أيَّ نَتِيجَةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مقدِّمَاتِ مَا تَضَمَّنَهُ هذَا الكِتَابُ. وَإِنَّهُ وَإِن كَانَ غَايَتُهُ اسْتِتْمامَ قِراءَتِهِ إلى آخرِهِ دُونَ مَعْرِفَةِ مَا يَقْرَأُ مِنْهُ، لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شيْءٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ نَفْعُهُ. وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ العُلُومِ وَقِرَاءَةِ الكُتُبِ مِنْ غَيْرِ إعْمَالِ الرَّوِيَّةِ فيمَا يَقْرَؤُهُ كَانَ خلِيقًا أَلاَّ يُصِيبَهُ إلاَّ مَا أَصَابَ الرَّجُلَ الذِي زَعَمَتِ العُلَمَاءُ أَنَّهُ اجْتَازَ بِبَعْضِ المَفَاوِزِ، فَظَهَرَ، لَهُ مَوْضِعُ آثَارِ كَنْزٍ، فَجَعَلَ يَحْفُرُ وَيَطْلُبُ، فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنٍ وَوَرِقٍ (1) فَقَال في نَفْسِهِ: إنْ أَنَا أَخَذْتُ في نَقْلِ هَذَا المَالِ قَلِيلًا قليلًا طَالَ عَلَيَّ، وَقَطَعَنِي الاشْتِغَالُ بِنَقْلِهِ وَإِحْرَازِهِ عَنِ اللَّذَّةِ بِمَا أَصَبْتُ منْهُ. وَلَكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوَامًا يَحْمِلُونَهُ إلى مَنْزِلِي، وَأَكُونُ أَنَا آخِرَهُمْ، وَلاَ يَكُون قَدْ بَقِيَ وَرَائى شَيْءٌ يُشْغِلُ فِكْرِى بِنَقْلِهِ، وَأَكُونُ قَدِ اسْتَظْهَرْتُ (2) لِنَفْسى فِي إراحَةِ بَدَنِي عَنِ الكَدِّ بِيَسِيرِ أُجْرَةٍ أُعْطِيهِمْ إيَّاهَا. ثُمَّ جَاء بِالْحَمَّالِينَ، فَجَعَلَ يُحَمِّلُ كلَّ وَاحِدٍ

---

(1) العين: الذهب، والورق: الدراهم المضروبة.

(2) يريد استعنت

مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ ، فينْطَلِقُ بِهِ إلى مَنْزِله ، فَيَفُوزُ بِهِ . حَتَّى إذا لَمْ يَبْقَ مِنَ الكنْزِ شيْءٌ انْطلَقَ خَلْفَهُمْ إلى مَنْزِلِهِ فلَمْ يجِدْ فيهِ منَ المال شيْئا لاَ قليلاً وَلاَ كَثِيراً ، وَإذا كُلُّ وَاحِدٍ منَ الحمَّالينَ قَدْ فَازَ بمَا حَمَلَهُ لِنَفسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ له منْ ذلِكَ الاَّ العَنَاءُ والتَّعَبُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هذَا الكِتَابَ وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيه وَلَم يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا بَدَا لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ . كَما لَوْ أَنَّ رَجُلاً قُدِّمَ لَهُ جَوْزٌ صَحِيحٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إلاَّ أنْ يَكسِرَهُ . وَكَانَ أيضًا كَالرَّجلِ الذى طَلَبَ عِلمَ الفصِيحِ مِنْ كَلامِ النَّاسِ ، فَأَتَى صَدِيقًا لَهُ مِنَ العُلَمَاءِ لَهُ عِلمٌ بِالفَصَاحَةِ ، فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ الى عِلْمِ الفَصِيحِ ، فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيحَ الكَلَامِ وَتَصَارِيفَهُ وَوُجُوهَهُ . فانْصَرَفَ المُتَعَلِّمُ إلى مَنْزِلِهِ ، فَجعَلَ يُكْثِرُ قِرَاءَتَهَا وَلاَ يَقِفُ عَلَى مَعَانِيها . ثُمَّ إنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَحْفِلٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَ الأَدَبِ فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ ، فَجرَتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيهَا ، فقَالَ لَهُ بَعْضُ الجَمَاعَةِ: إنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ ، وَالوَجْهُ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ . فقَالَ: كَيْفَ أُخْطِىءُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْرَاءَ؟ وَهِيَ فِي مَنْزِلى . فَكَانتْ مَقَالَتُهُ لَهُمْ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَزَادَهُ ذلِكَ قُرْبًا مِنَ الجَهْلِ ، وَبُعْدًا مِنَ الأَدَبِ .

ثُم إنَّ العَاقِلَ إذَا فَهِمَ هذَا الكِتَابَ وَبلَغَ نِهَايَةَ عِلْمِهِ فيهِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعمَلَ بِمَا عَلِمَ مِنْهُ ، لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، وَيَجْعَلَهُ مِثالاً لَا يَحِيدُ عَنْهُ . فَإذا لَمْ يَفْعَلْ ذلِكَ كَانَ مَثَلُهُ كالرَّجُلِ الذِى زَعَمُوا

أَنَّ سَارِقًا تَسَوَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ . فَعَلِمَ بِهِ . فَقَالَ: وَاللَّهِ لأَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ ، وَلاَ أُذْعِرهُ ، وَلاَ أُعْلِمُهُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ ، فَنَغَّصْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ ، وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ وَطَالَ تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ . فَغَلَبَ الرَّجُلَ النُّعَاسُ فَنَامَ . وَفَرَغَ اللِّصُّ مِمَّا أَرَادَ ، وَأَمْكَنَهُ الذَّهَابُ . وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ فَوَجَدَ اللِّص قَدْ أَخَذَ المَتَاعَ وَفَازَ بِهِ . فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا وعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللِّصِّ ، إِذْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ فِي أَمْرِهِ مَايَجِبُ . فَالعِلْمُ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِالعَمَلِ . فَهُوَ كَالشَّجَرَةِ ، وَ العَمَلُ بِهِ كَالثَّمَرَةِ . وَإِنَّمَا صَاحِبُ العِلْمِ يَقُومُ بِالعَمَلِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا يَعْلَمُ لاَ يُسَمَّى عَالِمًا . وَلَوْ أَنَّ رَجلاً كَانَ عَالِمًا بِطَرِيقٍ مخوفٍ، ثُمَّ سَلَكَهُ عَلَى عِلْمٍ بِهِ سُمِّيَ جَاهِلاً . ولَعَلَّهُ إِنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْوَاءً هَجَمَتْ بِهَا فِيمَا هُوَ أَعْرَفُ بِضَرَرِهَا فِيهِ وأَذَاهَا مِنْ ذَلِكَ السَّالِكِ فِي الطَّرِيق المَخوفِ الذِي قَدْ جَهِلَهُ . وَمَنْ ركِبَ هَوَاهُ وَرَفَضَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ بِمَا جَرَّبَهُ هُوَ ، أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ كَانَ كَالمَرِيضِ العَالِمِ بِرَدِيءِ الطَّعامِ والشَّرَابِ وَجَيِّدِهِ وَ خَفِيفِهِ وَثَقِيلِهِ ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّرَهُ عَلَى أَكْلِ رَدِيئِهِ وَتَرْكِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلى النَّجَاةِ وَ التَّخَلُّصِ مِنْ عِلَّتِهِ . وَأَقَلُّ النَّاسِ عذْرًا فِي اجْتِنَابِ مَحْمُودِ الأَفْعَالِ وَارْتِكَابِ مَذْمُومِهَا مَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ وَمَيَّزَهُ وَعَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ كَمَا أَنَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا بَصِيرٌ، وَالآخَرُ أَعْمى ، سَاقَهُمَا الأَجَلُ إِلى حُفْرَةٍ فَوَقَعَا فِيهَا كَانَا إِذا صَارَا فِي قَاعِهَا بِمَنْزِلَةٍ

وَاحِدَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ البَصِيرَ أَقَلُّ عُذْرًا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ ، إِذْ كانَتْ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا ، وَذَلكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلُ غَيْرُ عَارِفٍ .

(ص 126 ـ 132)

واجبات العالم

وَعلى العَالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ ويُؤَدِّبَهَا بِعِلْمِهِ ، وَلَا تَكُون غَايَتَهُ اقْتِنَاؤُهُ العِلْمَ لِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ وَنَفْعِهِ بِهِ وحِرْمَانِ نَفْسِهِ مِنْهُ ، ويَكُونُ كَالعَيْنِ التِي يَشْرَبُ النَّاسُ مَاءَهَا ، ولَيْسَ لَهَا فِي ذَلِكَ شَيءٌ مِنَ المَنْفَعَةِ ، وكَدُودَةِ القَزِّ التِي تُحْكِمُ صَنْعَتَهُ وَلَا تَنْتَفِعُ بِهِ . فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ العِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ بِعِظَةِ نَفْسِهِ . ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُقْبِسَهُ (1) ، فَإِنَّ خِلَالا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيهَا وَيُقْبِسَهَا: مِنْهَا العِلْمُ وَالمَالُ ، وَمِنْهَا اتِّخَاذُ المعْرُوف. وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَعِيبَ امْرأً بِشَيْءٍ فِيهِ مِثْلُهُ ، وَيَكُونَ كَالأَعْمى الذي يُعَيِّرُ الأَعْمَى بِعَمَاهُ . وَيِنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ غَايَةٌ وَنِهَايَةٌ يَعْمَلُ بِهَا ، وَيَقِفُ عِنْدَهَا ، وَلَا يَتَمَادى فِي

---

(1) أقبسه العلم : أعلمه إياه

الطَّلَبِ ، فَانَّهُ يُقَالُ: مَنْ سَارَ إلى غَيْرِ غَايَةٍ يُوشِكُ أنْ تَنْقَطِعَ بِهِ مَطِيَّتُهُ ، وَأنهُ كَانَ حَقِيقًا ألَّا يُعَنِّيَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ مَا لاَ حَدَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَنَلْهُ أحَدٌ قَبْلَهُ ، وَلاَ يَتَأسَّفَ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَكُونَ لِدُنْيَاهُ مُؤْثِرًا عَلَى آخِرَتِهِ ، فَإنَّ مَنْ لَمْ يُعَلِّقْ قَلْبَهُ بِالغَايَاتِ قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا . وَقَدْ يُقَالُ فِي أمْرَيْنِ إنَّهُمَا يَجْملاَنِ بِكُلِّ أحَدٍ: أحَدُهُمَا النُّسْكُ ، وَالآخَرُ المَالُ الحَلاَلُ . وَلاَ يَلِيقُ بِالعَاقِلِ أنْ يُؤَنِّبَ نَفْسَهُ عَلَى مَا فَاتَهُ وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ ، فَرُبَّمَا أتَاحَ اللَّهُ لَهُ مَا يَهْنَأُ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ . وَمِنْ أمْثَالِ هذَا أنَّ رَجُلاً كَانَ بِهِ فَاقَةٌ وَجُوعٌ وعُرْيٌ ، فَألْجَأهُ ذلِكَ إلى أن سَألَ أقَارِبَهُ وأصْدِقَاءَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُودُ بِهِ عَلَيْهِ . فَبَيْنَمَا هُو ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إذْ بَصُرَ بِسَارِقٍ فِيهِ . فَقَالَ: وَاللّهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أخافُ عَلَيْهِ ، فَلْيَجِدَّ السَّارِقُ جُهْدَهُ . فَبَيْنَما السَّارِقُ يَجُولُ إذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَابِيَةٍ فِيهَا حِنْطَةٌ فَقَالَ السَّارِقُ: واللّهِ مَا أُحِبُّ أنْ يَكُونَ عَنَائِي اللَّيْلَةَ بَاطِلاً ، وَلَعَلِّي لاَ أصِلُ إلى مَوْضِعٍ آخَرَ؛ ولكِنْ سَأحْمِلُ هذِهِ الحِنْطَةَ . ثُمَّ بَسَطَ قَمِيصَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الحِنْطَةَ . فَقَالَ الرَّجُلُ: أيَذْهَبُ هذَا بالحِنْطَةِ؟ وَلَيْسَ وَرَائِي سِوَاهَا ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيَّ مَعَ العُرْيِ ذَهَابُ مَا كُنْتُ أقْتَاتُ بِهِ ، وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللّهِ هَاتَانِ الخَلَّتَانِ عَلى أحَدٍ إلَّا أهْلَكَتَاهُ . ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ وَأخَذَ هِرَاوَةً كانت عِنْدَ رَأسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلسَّارِقِ حِيلَةٌ إلَّا الهَرَبَ مِنْهُ ، وَتَرَكَ قميصه ونجا بِنَفْسِهِ ،وغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِيًا . وَلَيْسَ يَنْبَغِي أنْ يَرْكَنَ إلى مِثْلِ هذا وَيَدَعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ

الحَذَرِ وَالعَمَلِ فِي مِثْلِ هذَا لِصَلَاحِ مَعَاشِهِ ، وَلَايَنْظُرَ إلى مَنْ تُؤَاتِيهِ المَقَادِيرُ وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ الْتِمَاسٍ مِنْهُ ، لِأَنَّ أُولئِكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ . والجُمهُورُ مِنْهُمْ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي الكَدِّ والسَّعْي فِيمَا يُصْلِحُ أَمْرَهُ ، وَيَنَالُ بِهِ مَا أَرَادَ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حِرْصُهُ عَلَى مَا طَابَ كَسْبُهُ وَحَسُنَ نَفْعُهُ . وَلَا يَتَعَرَّضَ لِمَا يَجْلِبُ عَلَيْهِ العَنَاء والشقَّاءَ ، فَيَكُونَ كَالحَمَامَةِ التِي تُفْرِخُ الفِرَاخَ فَتُؤْخَذُ وَتُذْبَحُ ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهَا ذلِكَ أَنْ تَعُودَ فَتُفْرِخَ مَوْضِعَهَا ، وتُقِيمَ بِمَكانِهَا ، فَتُؤْخَذَ الثَّانِيَةُ مِنْ فِرَاخِهَا فَتُذْبَحَ . وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ اللّهَ تَعالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يوقف عَلَيْهِ . وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي الأَشْيَاءِ حَدَّهَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا. وَيُقَالُ: مَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فَحَيَاتُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَيُقَالُ: فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلَاحُهَا وَبَذْلُ جُهْدِهِ فِيهَا: مِنْهَا أَمْرُ مَعِيشَتِهِ ، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الجَمِيلَ بَعْدَهُ . وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مَنْ كُنَّ لَمْ يَسْتَقِيمْ لَهُ عَمَلٌ: مِنْهَا التَّوانِي ، وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الفُرَصِ . وَمِنْهَا التَّصْدِيقُ لِكُلِّ مُخْبِرٍ فَرُبَّ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقَلَهُ وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ . وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مُتَّهِمًا ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَدِيثًا ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الخَطَإِ إِذَا ظَهَرَ لَهُ خَطَؤُهُ ، وَلَا يُقْدِمَ عَلَى أَمْرٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوابُ ، وَتَتَّضِحَ لَهُ الحَقِيقَةُ ، وَلَا يَكُونَ كَالرَّجُلِ الذِي يَحِيدُ عَنِ الطَّرِيقِ فَيَسْتَمِرُّ عَلَى الضَّلَالِ ، فَلَا يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ إِلَّا جُهْدًا ، وَعَنِ القَصْدِ إِلَّا بُعْدًا . وَكَالرَّجُلِ الذِى تَقْذَى عَيْنُهُ

فَلاَ يَزَالُ يَحُكُّهَا ، وَرُبَمَا كَانَ ذَلِكَ الحكُّ سَبَبًا لِذَهَابِهَا . وَيَجِبُ عَلَى العَاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالقَضَاءِ وَالقَـدَرِ ، وَيَأْخُـذَ بِالحَـزْمِ ، وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ مَايُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَلاَ يَلْتَمِسَ صَلاَحَ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ

(ص132 ــ 137)

وصايا للقارئ

وَقَدْ يَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ في كِتَابِنَا هَذَا أَلاَّ تَكُونَ غَايَتُهُ التَّصَفُّحَ لِتَزاوِيقِهِ . بَلْ يُشرِفُ عَلَى مَا يَتضَمَّنُ مِنَ الأَمْثَالِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْهُ ، وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمَةٍ ، وَيُعْمِلَ فِيهَا رَوِيَّتَهُ ، وَيكُونَ مِثْلَ أَصْغَرِ الإِخْوَةِ الثَّلاَثَةِ الذِينَ خَلَّفَ لَهُمْ أَبُوهُمْ المَالَ الكَثِيرَ فَتَنَازَعُوهُ بَيْنَهُمْ. فَأَمَّا الكَبِيرانِ فَإِنَّهُمَا أَسْرَعَا في إِتْلاَفِهِ وَإِنفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ . وَأَما الصغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدمَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَخَواهُ مِنَ إِسْرَافِهِمَا وَتَخَلِّيهِمَا مَنَ المَالِ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُشَاوِرُهَا . وَقَالَ: يَا نَفْسِى ، إِنَّمَا المالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ وَيَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، لِبَقَاءِ حَالِهِ وَصَلاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاهُ وَشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَصَرْفِهِ فِي وَجْهِهِ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَالإِنْفَاقِ عَلى الوَلَدِ ، وَالإِفْضَالِ عَلَى الإِخْوَانِ ، فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلاَ يُنْفِقُهُ فِي حُقُوقِهِ كَانَ كَالَّذِى

يُعَدُّ فَقِيرًا وَإِنْ كانَ مُوسِرًا ، وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِمْسَاكَهُ وَالقِيَامَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْدَمِ الأَمْـرَيْنِ جَمِيعًا: مِنْ دُنْيَـا تَبْقى عَلَيْهِ ، وَحَمْـدٍ يُضَافُ إِلَيْهِ . وَمَتَى قَصَدَ إِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الوُجُوهِ التِي عَلِمْتَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَـةٍ . وَلكِنَّ الرَّأْى أَنْ أُمْسِـكَ هذا المَالَ ، فَإِنِّى أَرْجُـو أَنْ يَنْفَعَنِى اللَّهُ بِهِ ، وَيُغْنِي أَخَوَيَّ عَلَى يَدَيَّ ، فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أَبِيهِمَا ، وَإِنَّ أَوْلَى الإِنفَاقِ عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعُدَتْ ، فَكَيْفَ بِأَخَوَيَّ؟ فَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُمَا ، وَشَاطَرَهُمَا مَالَهُ .

وكَذلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِىءِ هذا الكِتابِ أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ ، وَلاَ يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ الإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ ، أَوْ مُحَاوَرَةِ سَبع لِثَوْرٍ ، فَيَنْصَرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الغَرَضِ المَقْصُودِ . وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ الصَّيَّادِ الذى كَانَ فِي بَعْضِ الخُلْجَانِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَـكَ فِي زَوْرَقٍ فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَرْضِ المَاءِ صَدَفَةً تَتلألأُ حُسْنًا ، فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ ، وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي البَحْرِ ، فَـاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ ، فَخَلاَّهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي المَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدَفَةَ . فَلَمَّا أَخْرَجَها وَجَدَهَا فَارِغَةً لاَ شَىْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ ، فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ ، وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَـانَ اليَـوْمُ الثَّـانِى تَنَحَّى عَنْ ذَلِـكَ المكـانِ وَأَلْقَى شَبَكَتَـهُ ، فَأَصَابَتْ حُوتًا صغِيرًا ، وَرَأى أَيضًا صَدَفَةً سَنِيَّـةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا ، فَتَرَكَهَا . فاجْتَازَ بِهَـا بَعْضُ الصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا ، فَوَجَدَ فِيها دُرَّةً تُسَاوى أَمْوالاً . وَكَذَلِكَ الجُهَّالُ إِذَا

أغْفَلُوا أمْرَ التَّفكُّرِ في هذَا الكِتابِ وتَركوا الوقُوفَ عَلَى أسْرَارِ مَعَانِيهِ ، وَأَخَذُوا بِظَاهِرِهِ . وَمَنْ صَرفَ هِمَّتَهُ إلى النَّظرِ في أبْوابِ الهَزْلِ كَانَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحبًّا صَحِيحًا ، فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا ، حَتَّى إذَا قَرُبَ خَيْرُهَا وَأيْنَعتْ تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ الزَّهرِ وَقَطْعِ الشَّوْكِ ؛ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَة ، وَأَجْمَلَ عَائِدَةً

وَيَنْبغِي لِلنَّاظِرِ في هذَا الكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إلَى أرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ :

أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إلى وَضْعِهِ عَلى أَلْسِنَةِ البَهَائِمِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ ، لِيُسَارِعَ إلى قِرَاءَتِهِ أَهْلُ الهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ ، فَتُسْتَمَالَ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، لأَنَّهُ هُوَ الغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ الحَيَوَانَاتِ .

وَالثَّانِي إظْهَارُ خَيَالاتِ الحَيَوانَاتِ بِصُنُوفِ الأصْبَاغِ وَالألْوَانِ ، لِيَكُونَ أنسًا لِقُلُوبِ المُلُوكِ ، وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ النُّزْهَةِ في تِلْكَ الصُّوَرِ.

وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، فَيَتَّخِذَهُ المُلُوكُ وَالسُّوقَةُ ، فَيَكْثُرَ بِذَلِكَ انْتِسَاخُهُ ، وَلاَ يَبْطُلَ ، فَيَخْلُقَ عَلى مُرُورِ الأيَّامِ ، وَلِيَنْتَفِعَ بِذَلِكَ المُصَوِّرُ وَالنَّاسِخُ أَبَدًا وَ الغَرَضُ الرَّابِعُ وَهُوَ الأقْصى . وَذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً .

(ص 140 ـ 144)

مثل السارق المخدوع

يا نَفْس لَا تَغْتَرِّى بِصُحْبَةِ أَحبَّائِكِ وَأَصْحَابكِ وَلَا تَحْرِصي على ذَلِكَ كُلَّ الحِرْصِ ، فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ عَلَى مَافِيهَا مِنَ السُّرُورِ كَثِيرَةُ المُؤْونَةِ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ الفِرَاقُ . وَمَثَلُهَا مَثَلُ المِغْرَفَةِ التى تُسْتَعْمَلُ في جِدَّتِهَا لِسُخُونَةِ المَرَقِ ، فَإِذَا انْكَسَرَتْ صَارَتْ وَقُودًا: يَا نَفْس لَا يَحْمِلَنَّكِ أَهْلُكِ وَأَقَارِبُكِ عَلَى جَمْعِ مَا تَهْلَكِينَ فيهِ إرادَةَ صِلَتِهِمْ ، فَإِذَا أَنتِ كَالدُّخْنَةِ الأَرِجَةِ (1) التي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخرُونَ بِرِيحِهَا . يَا نَفْس لَا يَبْعُدْ عَلَيْكِ أَمْرُ الآخِرَةِ ، فَتَمِيلِي إِلَى العَاجِلَةِ في اسْتِعْجَالِ القَلِيلِ ، وَبَيْعِ الكَثِيرِ باليَسِيرِ ، كَالتَّاجِرِ الذى كَانَ لَهُ مِلْءُ بَيْتٍ مِنَ الصَّنْدَلِ (2) ، فَقَالَ: إنْ بِعْتُهُ وَزْنًا طَالَ عَلَيَّ ، فَبَاعَهُ

(1) الدخنة بالضم: ذريرة يبخر بها البيوت: والارجة: ذات الرائحة الطيبة.

(2) الصندل: شجر هندى طيب الرائحة يشبه شجر الجوز وله حب أخضر وعناقيد وأما الصندل الاحمر فهو مسحوق قشر هذا الشجر يستعمل لتلوين بعض المستحضرات وأما الاصفر فهو شجر يستخرج من قشره عطر هو المستعمل في الطب كما أنه المراد في هذا المقام.

جُزَافًا (3) بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ . وَقَد وَجَدْتُ آراءَ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً ، وأَهْواءهُمْ مُتَبَايِنَةً ، وَكُلٌّ عَلى كُلِّ رَادٌّ ، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتَابٌ وَلِقَوْلِهِ مُخَالِف . فلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ لَمْ أَجِدْ إلى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلاً ، وَعَرَفْتُ أَنِّى إنْ صَدَّقْتُ أَحدًا منْهُمْ لاَ عِلْمى بِحَالِهِ كُنْتُ فِي ذلكَ كَالْمُصَدِّقِ المَخْدُوعِ الذِى زَعَمُوا فِي شَأْنِهِ: أَنَّ سَارِقًا عَلاَ ظَهْرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ ، وكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصحَابِهِ ، فَاسْتَيْقَظَ صَاحِبُ المَنْزِلِ مِنْ حَرَكَةِ أَقْدَامِهِمْ ، فَعَرَّفَ امْرَأَتَهُ ذَلكَ ، فقَالَ لَهَا: رُوَيْدًا إنِّى لأَحْسَبُ اللُّصُوصَ عَلوا البيتَ ، فَأيْقِظِينِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ اللُّصُوصُ ، وَقُولى: أَلاَ تُخْبِرُنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أموالك هذِهِ الكثِيرَةِ ، وَكُنُوزِكَ العَظِيمَةِ ، فَإِذَا نَهَيْتُكِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فَأَلِحِّى عليَّ بِالسُّؤَالِ . فَفعلَتِ المَرْأَةُ ذلِكَ ، وَسَأَلَتهُ كَمَا أَمَرَهَا ، وَأَنصَتَتِ اللُّصُوصُ الى سَمَاعِ قَوْلِهِمَا . فقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: أَيَّتُهَا المَرْأَةُ قَدْ سَاقَكِ القَدَرُ إلى رِزْقٍ وَاسِعٍ كَثِيرٍ ، فَكُلِي وَاسْكُتِى ، وَلاَ تَسْأَلِي عَنْ أَمْرٍ إنْ أَخْبَرْتُكِ بِهِ لَمْ آمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ ، فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ مَا أَكْرَهُ وَتَكْرَهِينَ . فَقالَتِ المَرْأَةُ: أَخبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَلَعَمْرِى مَا بِقُرْبِنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلاَمَنا . فَقَالَ لَهَا: فَإِنِّى أُخبِرُكِ أَنِّى لَمْ أَجْمَعْ هذِهِ الأَمْوَالَ إلاَّ مِنَ السَّرِقَةِ . قَالَتْ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟! وَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ؟! قَالَ: ذَلِكَ لِعِلمٍ أَصَبْتُهُ فِي السَّرِقَةِ ، وكَانَ الأَمْرُ عَلَيَّ يَسِيرًا وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهِمَنِى أَحَدٌ أَوْ يَرْتَابَ فِيَّ . قَالَتْ: فَاذْكُرْ لى ذَلِكَ . قَالَ: كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ المُقْمِرَةِ أَنَا

(3) الجزاف: بيع الشيء لا يعلم كيله ولا وزنه.

وَأَصْحَابِي ، حَتَّى أَعْلُوَ دَارَ بَعض الأَغْنِيَاءِ مِثْلِنَا ، فَأَنْتَهِي إِلى الكُوَّةِ التِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضَّوءُ ، فَأَرْقِي بِهذِهِ الرُّقْيَةِ وَهِي (شَوْ لَمْ شَوْ لَمْ) سَبْعَ مَرَّاتٍ وَأَعْتَنِقَ الضَّوْءَ ، فَلاَ يُحِسُّ وُقُوعِي أَحَدٌ ، فَلاَ أَدَعُ مَالاً ولاَ مَتاعًا إلاَّ أَخَذْتُهُ . ثُمَّ أَرْقِي بِتِلْكَ الرُّقْيَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَأَعْتَنِقُ الضَّوْءَ ، فَيَجْذِبُنِي فَأَصْعَدُ الى أَصْحَابِي، فَنَمْضِي سَالِمِينَ آمِنِينَ . فَلَمَّا سَمِعَ اللُّصُوصُ ذَلِكَ قَالُوا: قَدْ ظَفِرْنَا اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيدُ مِنَ المَالِ . ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا المُكْثَ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَد هَجَعَا . فَقَامَ قَائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ الضَّوْءِ وَقَالَ: "شَوْ لَمْ شَوْ لَمْ" سَبْعَ مَرَّاتٍ . ثُمَّ اعْتَنَقَ الضَّوْءَ لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ المَنْزِلِ ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنَكَّسًا ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِهِرَاوَتِهِ ، وقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟قَالَ : أَنا المُصَدِّقُ المَخْدُوعُ المُغْتَرُّ بِمَا لاَ يَكُونُ أَبَدًا ، وَهذِهِ ثَمرَةُ رُقْيَتِكَ .

(ص 148 ـــ 152)

مثل الإنسـان في الدنيا

التَمَسْتُ لِلإِنْسَانِ مَثَلاً ، فَإِذَا مَثَلُهُ مَثَلُ رَجـلٍ نَجَا مِنْ خَوْفِ فِيلٍ هَائِجٍ إلى بِئْرٍ ، فتَدَلَّى فِيهَا ، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنينِ كَانَا عَلَى سَمَائِهَا ، فَوَقَعَتْ رِجْلاَهُ عَلَى شَيْءٍ في طَيِّ البِئْـرِ ، فَإِذَا حَيَّاتٌ أَرْبَعٌ ، قَدْ أَخْرَجْنَ رُؤوسَهُنَّ مِنْ أَحْجَارِهِنَّ . ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا في قَاعِ البِئْرِ تِنِّينٌ « 1 » فَـاتِحٌ فَـاهُ ، مُنْتَظِرٌ لَـهُ لِيَقَعَ فَيأْخُذَهُ فَرفَعَ بَصَرَهُ إلى الغُصْنَيْنِ، فإذا في أُصْلِهِما جُرَذَانِ: أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وهُمَا يَقْرِضَانِ الغُصْنَيْنْ دَائِبَين لاَ يَفْتُرَانِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ في النَّظَرِ لِأَمْرِهِ ، وَالاهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَبْصَرَ قَرِيبًا مِنْهُ كوارَة « 2 » فِيهَا عَسَلُ نَحْلٍ ، فَذَاقَ العَسَـلَ ، فَشَغَلَتْهُ حَـلاَوَتُهُ

(1) التنين حيوان خرافي وهمي ليس له صورة في الوجود أما الأوصاف: فتارة يجعلونه أفعى هائلة وطورًا يجعلونه حيوانًا ذا أرجل يسكن الصحارى أو يسكن الأنهار أو بلا أرجل ويقوى على السباحة وربما سبح أسرابًا أسرابًا ويقولون: إن له صفيرًا حادًا وبطشًا يصرع الفيل الشديد ويلتذ بسماع الأنغام على أن مسافة الخلف واسعة لا طائل تحتها والمسألة هنا مسألة فرض وتمثيل.

(2) الكوارة بالضم وتكسر وتشدد الواو: شيء يتخذ للنحل من القضبان أو الطين ضيق الرأس.

وَأَلْهَتْهُ لَذَّتُهُ عَنِ الفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ وَأَنْ يَلْتَمِسَ الخَلاَصَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَّاتٍ أَرْبَعٍ ، لاَ يَدْرِي مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الجُرَذَيْنِ دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الغُصْنَيْنِ ، وَمَتَى انقطعَا وَقَعَ عَلَى التِّنِّينِ فَلَمْ يَزَلْ لاَهِيًا غَافِلاً مَشْغُوفًا بِتِلْكَ الحَلاَوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي فَمِ التِّنِّينِ فَهَلَكَ ، فَشَبَّهْتُ بِالبِئْرِ الدُّنْيَا المَمْلُوءَةَ آفَاتٍ وَشُرُورًا ، وَمَخَافَاتٍ وَعَاهَاتٍ . وَشَبَّهْتُ بالحَيَّاتِ الأَرْبَعِ الأَخْلاَطَ الأَرْبَعَةَ التِي فِي البَدَنِ ، فَإِنَّهَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ أَحدُهَا كَانَت كَحُمَةِ (3) الأَفَاعِي وَالسُّمِّ المُمِيتِ . وَشَبَّهْتُ بالغُصْنَيْنِ الأَجَلَ الذِي لاَ بُدَّ مِنَ انْقِطَاعِهِ . وَشَبَّهْتُ بالجُرَذَيْنِ الأَسْوَدِ وَالأَبْيَضِ اللَّيْلِ والنَّهَارَ اللَّذَيْنِ هُمَا دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الأَجَلِ . وَشَبَّهْتُ بِالتِّنِّينِ المَصِيرَ الذِي لاَ بُدَّ مِنْهُ . وَشَبَّهْتُ بالعَسَلِ هَذِهِ الحَلاَوَةَ القَلِيلَةَ التِي يَنَالُ مِنْهَا الإِنْسَانُ فَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشُمُّ وَيَلْمِسُ وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَسُدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ ، فَحِينَئِذٍ صَارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَا بِحَالِي وَإِصْلاَحِ مَا آسْتَطَعْتُ إِصْلاَحَهُ مِنْ عَمَلِي ، لَعَلِّي أُصَادِفُ بَاقِيَ أَيَّامِي زَمَانًا أُصِيبُ فِيهِ دَلِيلاً عَلَى هُدَايَ ، وَسُلْطَانًا عَلَى نَفْسِي وَقِوَامًا لِأَمْرِي . فَأَقَمْتُ عَلَى هِذِهِ الحَالِ ، وَانْتَسَخْتُ كُتُبًا كَثِيرَةً ، وَآنْصَرَفْتُ مِنْ بِلاَدِ الهِنْدِ وَقَدْ نَسَخْتُ هَذَا الكِتَابَ.

(ص 163 — 165)

---

(3) الحمة بالضم: الابرة التى تضرب بها العقرب ونحوها أو تلدغ بها الحية أو غيرها.

مثل القرد والنجّار

زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا رَأَى نَجّـارًا يَشُقُّ خَشَبَةً بَـيْنَ وَتَدَيْنِ وَهُـوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَأَعْجَبَـهُ ذَلِكَ . ثُمّ إنَّ النَّجّـارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ . فَقَامَ القِرْدُ وَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ ، فَرَكِبَ الخَشَبَةَ وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبلَ الوَتدِ ، وَوَجْهَهُ قِبَلَ الخَشَبَةِ ، فَتَدَلّى ذَنَبُهُ في الشَّقِّ ، وَنَزَعَ الوَتَدَ ، فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيْهِ ، فَخَرَّ مَغشِيًّا عليهِ منَ الألَمِ . ثُمَّ إنَّ النَّجّارَ وَافَاهُ فَرَآهُ عَلى تِلْكَ الحَالَةِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيهِ يَضْرِبُهُ . فَكَانَ مَالَقِيَ منَ النَّجّارِ أشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ منَ الخَشَبَةِ . قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَدْنُو منَ المُلُوكِ يَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِهِمْ وَيَفُوزُ بِقُرْبِهِمْ . وَلَكِن اعلَمْ أَنَّ كلَّ مَنْ يَدْنُو منَ المُلُوكِ لَيْسَ يَدْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ فَـإنَّ البَطْنَ مَحْشَى لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَإنَّمَا يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَسُرَّ الصَّدِيقَ ، وَيَكْبِتَ العَدُوَّ . وَإنَّ مِنَ النّـاسِ مَنْ لاَ مُـرُوءَةَ لَـهُ: وَهُمُ الـذِينَ يَفْـرَحُـونَ

بِالقَلِيلِ ، وَيَرْضَوْنَ بِالدُّونِ. كَالكَلْبِ الذِى يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا فَيفْرَحُ بِهِ . وَأَمَّا أَهْلُ الفَضْلِ وَالمُرُوءَةِ فَلاَ يُقْنِعُهُمُ القَلِيلُ وَلاَ يَرْضَوْنَ بِهِ دُونَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِ نُفُوسُهُمْ إِلى مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ وَهُوَ أَيْضًا لَهُمْ أَهْلٌ . كَالأَسَدِ الذِي يفتَرِسُ الأَرْنَبَ فَاذَا رَأَى البَعِيرَ تَرَكَهَا وَطَلَبَ البَعِيرَ . أَلاَ تَرَى أَنَّ الكَلْبَ يُبَصْبِصُ بِذَنَبِهِ حَتَّى تَرْمِيَ لَهُ الكِسْرَةَ مِنَ الخُبْزِ فَتُقْنِعَهُ وَتُرْضِيَهُ مِنْكَ . وَأَنَّ القِيلَ المُعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَلَفُهُ لاَ يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يُمْسَحَ وَجْهُهُ وَيُتَمَلَّقَ لَهُ . فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ وَكَانَ ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلى أَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمْرُهُ طَوِيلُ العُمْرِ . وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشِهِ ضِيقٌ وَقِلَّةٌ وَإِمْسَاكٌ عَلى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ فَالمَقْبُورُ أَحْيَا مِنْهُ . وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَشَهْوَتِهِ وَقَنِعَ وَتَرَكَ مَا سِوى ذَلكَ عُدَّ مِنَ البَهَائِمِ.

(ص 175 ــ 177)

صحبة السلطان

قَالَ كَلِيلَةُ: إنِّي أُحَذِّرُكَ صُحْبَةَ السُّلْطَانِ. فَإنَّ صُحْبَتَهُ خَطَرٌ عَظِيمٌ. وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: إنَّ أُمورًا ثلاثَةً لا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إلاَّ أَهْوَجُ، وَلاَ يَسْلَمُ مِنْهُنَّ إلاَّ القَلِيلُ: وَهِيَ صُحْبَةُ السُّلطَانِ، وَائتِمانُ النِّسَاءِ عَلى الاسْرَارِ، وَشُرْبُ السُّمِّ لِلتَّجْرِبَةِ. وَإنَّمَا شَبَّهَ العُلَمَاءُ السّلطان بِالجَبَلِ الوَعْرِ الصَّعْبِ المُرْتَقى الذِى فِيهِ الثِّمارُ الطَّيِّبَةُ، وَالجَوَاهِرُ النَّفِيسَةُ، وَالأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ وَهُوَ مَعَ ذَلكَ مَعْدِنُ السِّبَاعِ وَالنُّمُورِ وَالذِّئَابِ وَكُلِّ سَبُعٍ مُخُوفٍ. فَالارْتِقَاءُ إلَيْهِ شَدِيدٌ، وَالمَقَامُ فِيهِ أَخْوَفُ. قَالَ دِمْنَةُ: صَدَقْتَ فيما وَصَفْتَ. غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَب الأهوالَ لَمْ ينلِ الرَّغَائِبَ. وَمَنْ تَرَكَ الأَمْرَ الذِى لَعَلَّهُ يَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعَلَّهُ يتوقَّى، فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيمًا. وَقَدْ قِيلَ: إنَّ خِصَالاً ثلاثًا لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ إلاَّ بِمَعُونَةٍ مِنِ ارْتِفَاعِ الهِمّةِ

وَعَظِيمِ الخَطَرِ: مِنْهَا عَمَلُ السُّلطَانِ ، وَتِجَارَة البَحْرِ ، وَمُنَاجَزَةُ العَدُوِّ(1) . وَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ فِي الرَّجُلِ الفَاضِلِ المُرُوءَةِ: إِنَّهُ لَا يُرَى إِلَّا فِي مَكَانَين ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُمَا: إِمَّا مَعَ المُلُوكِ مُكَرَّمًا ، أَوْ مَعَ النُّسَّاكِ مُتَبَتِّلًا: كَالفِيلِ إِنَّمَا جَمَالُهُ وَبَهَاؤُهُ فِي مَكَانَين: إِمَّا فِي البَرِيَّةِ وَحْشِيًّا ، أَوْ مَرْكَبًا لِلمُلُوكِ . قَالَ كَلِيلَةُ خَارَ اللهُ لَكَ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيهِ(2) . وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي مُخَالِفُكَ فِي رَأْيِكَ هَذَا .

(ص 180 ـ 181)

1 مقاتلته.

2 جعل الله لك فيه الخير.

سعي دمنة لتقريب الثور من السلطان

ثُمَّ إنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالأَسدِ وَخَلاَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: أَرَى المَلِكَ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لاَ يَبْرَحُ مِنْهُ . فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ فَبَيْنَمَا هُمَا فِي هَذَا الحَدِيثِ إِذْ خَارَ شَتْرَبَةُ خُوَارًا شَدِيدًا ، فَهَاجَ الأَسَدُ ، وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِمَا نَالَـهُ . وَعَلِمَ دِمْنَةُ أَنَّ ذَلِـكَ الصَّوتَ قَدْ أَدْخَلَ عَلى الأَسَدِ رِيبَةً وَهَيْبَةً ، فَسَأَلَـهُ هَلْ رَابَ المَلِكَ سَمَاعُ هَذَا الصَّوتِ؟ قال : لَمْ يَرِبْنِي شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ .
قَالَ دِمْنَةُ : لَيْسَ المَلِكُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَدَعَ مَكَانَهُ لِأَجْلِ صَوْتٍ .
فَقَدْ قَالَتِ العُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كُلِّ الأَصْوَاتِ تَجِبُ الهَيْبَةُ .
قَالَ الاسَدُ : وَمَا مَثَلُ ذَلِكَ؟

قَالَ دِمنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجَمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ ، وَكُلَّمَا هَبَّتْ الرِّيحُ عَلى قُضْبَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَّكَتْهَا ، فَضَرَبَتِ الطَّبْلَ فَسُمِعَ لَهُ صَوتٌ عَظِيمٌ ، فَتَوجَّهَ الثَّعْلَبُ نَحْوَهُ

لِأجْلِ مَا سَمِعَ مِنْ عَظيمِ صَوْتِهِ . فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ ضَخْمًا ، فَأَيْقَنَ في نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ ، فَعَالَجَهُ حَتَّى شَقَّهُ . فَلَمَّا رَآهُ أَجْـوَفَ لَا شَيْءَ فيهِ ، قَـالَ: لَا أَدْرِى لَعَلَّ أَفْشَـلَ الأَشْيَاءِ أَجْهَرُهَا صَوْتًا ، وَأَعْظَمُهَا جُثَّةً .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ الذِى رَاعَنَا لَوْ وَصَلْنَا إِلَيْهِ لَوَجَدْنَاهُ أَيْسَرَ مِمَّا في أَنْفُسِنَا . فَإِنْ شَـاءَ المَلِكُ بَعَثَنِي وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى آتِيهُ بِبَيَانِ هَذَا الصَّوْتِ . فَوَافَقَ الأَسَدَ قَوْلُهُ . فَأَذِنَ لَهُ بِالذَّهَابِ نَحْوَ الصَّوتِ ، فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إلى المَكَانِ الذِى فِيهِ شَتْرَبَةُ .

(ص 185 ـ 187)

غيرة دمنة من الثور

ثُمَّ إنَّ الأَسَدَ قَرَّبَ شَتْرَبَةَ وَأَكْرَمَهُ وَأَنِسَ بِهِ ، وَائْتَمَنَهُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الأَيَّامُ إلَّا عَجَبًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ ، وَتَقْرِيبًا مِنْهُ ، حَتَّى صَارَ أَخَصَّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً . فَلَمَّا رَأَى دِمْنَةُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدِ اخْتَصَّ بِالمَلِكِ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ . وَأَنَّهُ قَدْ صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخَلَوَاتِهِ وَلَهْوِهِ حَسَدَهُ حَسَدًا عَظِيمًا ، وَبَلَغَ مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ ، فَشَكَا ذَلكَ إلَى أَخِيهِ كَلِيلَةَ ، وَقَالَ لَهُ: أَلَا تَعْجَبُ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي ، وَصُنْعِي بِنَفْسِي ، وَنَظَرِي فِيمَا يَنْفَعُ الأَسَدَ ، وَأَغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي ، حَتَّى جَلَبْتُ إلَى الأَسَدِ ثَوْرًا غَلَبَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي.

قَالَ كَلِيلَةُ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَعْزِمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ. قَالَ دِمْنَةُ: أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ اليَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزْدَادَ مَنْزِلَتِي عِنْدَ الأَسَدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ . وَلكِنْ أَلْتَمِسُ أَنْ أَعُودَ إلَى

مَا كُنْتُ . فَإِنَّ أُمورًا ثَلاَثَةً العَاقِلُ جَدِيرٌ بالنَّظَرِ فِيهَا وَالاحْتِيَالِ لَهَا بِجُهْدِهِ: مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضى مِنَ الضرِّ وَالنَّفْعِ ، فَيَحْتَرِسُ مِنَ الضرِّ الذِى أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ ، لَئِلاَّ يَعُودَ إلى ذلِكَ الضَّرَرِ ، وَيَلْتَمِسُ النَّفْعَ الذِى مَضَى وَيَحْتَالُ لِمُعَاوَدَتِهِ . وَمِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا هُو مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ المَنَافِعِ وَالمَضَارِّ ، والاستيثاق بمَا ينفعُ ، وَالهَرَبُ مِمَّا يَضرُّ . وَمِنْهَا النَّظَرُ في مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنْ قِبَلِ النَّفْعِ وَمَا يَخَافُ مِنْ قِبَلِ الضرِّ ، لِيَسْتَتِمَّ مَا يَرْجُو ، وَيَتَوقَّى مَا يَخَافُ بِجُهْدِهِ . وَإِنِّى لَمَّا نَظَرْتُ فِي الأَمْرِ الذِي بِهِ أَرْجُو أَنْ تَعُودَ مَنْزِلَتِي وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنتُ فِيهِ لَمْ أَجِدْ حِيلَةً وَلاَ وَجْهًا إلاَّ الاحْتِيَالَ لاكِلِ العُشْبِ هذَا ، حَتَّى أُفرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الحَيَاةِ ، فَإِنَّهُ إنْ فَارَقَ الأَسَدَ عَادَتْ لِي مَنْزِلَتِي ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ خَيرًا لِلأَسَدِ ، فَإِنَّ إفْرَاطَه في تَقْرِيبِ الثَّوْرِ خَليقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كلِيلَةُ: مَا أَرَى عَلَى الأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْئًا وَلاَ شرًّا . قَالَ دِمْنَةُ: إنَّمَا يُؤْتَى السُّلْطانُ وَيَفْسُدُ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ سِتَّةِ أَشْيَاءَ: الحِرْمَانِ ، وَالفِتْنَةِ ، وَالهَوَى ، وَالفَظَاظَةِ ، وَالزَّمَانِ ، وَالخُرْقِ .

(ص191 ـ 193)

الغـراب والثعبـان

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا كَانَ لَـهُ وَكْرٌ فِي شَجَـرَةٍ على جَبَلٍ، وكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرُ ثُعْبَانٍ أَسْوَدَ، فَكَانَ الغُرَابُ إِذَا فَرَّخَ عَمدَ الأَسْوَدُ إلى فِرَاخِهِ فَأَكَلَهَا، فَبَلَغَ ذَلكَ مِنَ الغُرَابِ وَأَحْزَنَهُ، فَشَكَا ذَلكَ الى صَديقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوى، وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ الغُرَابُ: قَدْ عَـزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الأَسْوَدِ إِذَا نَـامَ، فَأَنْقُـرَ عَيْنَيْهِ فَأَفْقَـأَهُمَـا، لَعَلِّي أَسْـتَرِيحُ مِنْـهُ. قَالَ ابنُ آوى: بِئْسَ الحِيلَةُ التِى احْتَلْتَ فَالْتَمِسْ أَمْرًا تُصِيبُ فِيهِ بُغْيَتَكَ مِنَ الأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرِّرَ بِنَفْسِكَ وَتُخَاطِرَ بِهَا، وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَثَلُكَ مَثَلَ العُلْجُومِ « 1 » الذِى أَرَادَ قَتْلَ السَّرَطَانِ (2) فَقَتَلَ نَفْسَهُ قَالَ الغُرَابُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

---

(1) العلجوم : ذكر البط

(2) السرطان: حيوان مائى ذو فكين مخالبه وأظفاره حداد صلب الظهر كثير الاسنان يسبح على جنب واحد ويسمى عقرب الماء يعيش في الماء العذب والملح ويقضى كثيرًا من حياته في البر وأنواعه البحرية توجد على الشواطىء ويعضها يعيش في الاعماق أو يطفو على وجه الماء بعيدًا عن الشاطىء الا اذا قذفته الامواج اليه ومنه أيضا ما يكثر أيضا بين الاعشاب الطافية على وجه الماء؛

قَالَ ابْنُ آوى: زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا عَشَّشَ فِي أَجَمَةٍ كَثِيرَةِ السَّمَكِ ، فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ ، ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ، فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ . فَجَلَسَ حَزِينًا يَلْتَمِسُ الحِيلَةَ فِي أَمْرِهِ ، فَمَرَّ بِهِ سَرَطَانٌ ، فَرَأَى حَالَتَهُ ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الكَآبَةِ وَالحُزْنِ ، فَدَنَا مِنْهُ ، وَقَالَ: مَالِى أَرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هكَذَا حَزِينًا كَئِيبًا ؟ قَالَ العُلْجُومُ: وَكَيْفَ لَا أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ صَيْدِ مَا هَاهُنَا مِنَ السَّمَكِ ! وَإِنِّى قَدْ رَأَيْتُ اليَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَد مَرَّا بِهذَا المَكَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هَاهُنَا سَمَكًا كَثِيرًا ، أَفَلَا نَصِيدُهُ أَوَّلًا ؟ فَقَالَ الآخَرُ: إِنِّى قَدْ رَأَيْتُ فِى مَكَانِ كَذَا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ ، فَلْنَبْدَأْ بِذلكَ ، فَإِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ جِئْنَا إِلى هذَا فَأَفْنَيْنَاهُ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا إِذَا فَرَغَا مِمَّا هُنَاكَ انتَهَيَا إِلَى هذِهِ الأَجَمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ هَلَاكِى وَنَفَادُ مُدَّتِى . فَانْطَلَقَ السَّرَطَانُ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذَلِك . فَأَقْبَلْنَ إِلى العُلْجُومِ فَاسْتَشَرْنَهُ وَقُلْنَ لَهُ: إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنَا ، فَإِنَّ ذَا العَقْلِ لَا يَدَعُ مُشَاوَرَةَ عَدُوِّهِ . قَالَ العُلْجُومُ: أَمَّا مُكَابَرَةُ الصَّيَّادَيْنِ فَلَا طَاقَةَ لِى بِهَا ، وَلَا أَعْلَمُ حِيلَةً إِلَّا المَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ هَاهُنَا ، فِيهِ سَمَكٌ وَمِيَاهٌ عَظِيمَةٌ وَقَصَبٌ . فَإِنِ اسْتَطَعْتُنَّ الإِنْتِقَالَ إِلَيْهِ كَان فِيهِ صَلَاحُكُنَّ وَخِصْبُكُنَّ . فَقُلْنَ لَهُ: مَا يَمُنُّ عَلَيْنَا بِذَلِكَ غَيْرُكَ . فَجَعَلَ العُلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَتَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى بَعْضِ التِّلَالِ فَيَأْكُلُهُمَا . حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ لِأَخْذِ السَّمَكَتَيْنِ فَجَاءَهُ السَّرَطَانُ فَقَالَ لَهُ: إِنِّى أَيْضًا قَد أَشْفَقْتُ مِنْ مَكَانِى هَذَا وَاسْتَوْحَشْتُ مِنهُ ، فَاذْهَبْ بِى إِلَى

ذلِكَ الغَدِيرِ ، فَاحْتَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التَّلِّ الذِى كَانَ يَأْكُلُ السَّمَكَ فِيهِ ، نَظَرَ السَّرَطَانُ فَـرَأَى عِظَامَ السَّمَـكِ مَجْمُوعَةً هُنَاكَ ، فَعَلِمَ أَنَّ العُلجُومَ هُوَ صَاحِبُهَا ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذلِكَ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي المَوَاطِنِ التِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا هَالِكٌ سَوَاءٌ قَاتَلَ أَوْ لَمْ يُقَاتِلْ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفَاظًا . ثُمَّ أَهْوى بِكَلْبَتَيْهِ (3) عَلَى عُنُقِ العُلْجُومِ فَعَصَرَهُ فَماتَ . وَتَخَلَّصَ السَّرَطَـانُ إِلَى جَمَاعَـةِ السَّمكِ ، فَأَخْبَرَهُنَّ بِذلِكَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الحِيلَةِ مَهْلَكَةٌ لِلْمُحْتَالِ . وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ كَانَ فِيهِ هَلاَكُ الأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ . وَتَكُونَ فِيهِ سَلاَمَتُكَ . قَالَ الغُرَابُ: وَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوى: تَنْطَلِقَ فَتَبَصَّرُ فِي طَيَرَانِكَ لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ بِشَيْءٍ مِنْ حُلِي النِّسَاءِ فَتَخْطَفَهُ ، وَلاَ تَزَالُ طَائِرًا وَاقِعًا بِحَيْثُ لاَ تَفُوتُ العُيُونَ حَتَّى تَأْتِي جُحْرَ الأَسْوَدِ فَتَرْمِيَ بِالحُلِيِّ عِنْدَهُ . فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَخَذُوا حُلِيَّهُمْ وَأَرَاحُـوكَ مِنَ الأَسْوَدِ . فَانْطَلَقَ الغُرَابُ مُحَلِّقًا فِي السَّمَاءِ ، فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ العُظَمَاءِ فَـوْقَ سَطْحٍ تَغْتَسِـلُ ، وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيَـابَهَا وَحُلِيَّهَـا نَاحِيَـةً . فَانْقَضَّ وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّهَا عِقْدًا ، وَطَارَ بِهِ . فَتَبِعَهُ النَّاسُ ، وَلَمْ يَزَلْ طَائِرًا وَاقِعًا بِحَيْثُ يَرَاهُ كَلُّ أَحَدٍ حَتَّى انْتَهى إِلى جُحْرِ الأَسْوَد ، فَأَلْقى العِقْدَ عَلَيْهِ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرونَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا أَتَوْهُ

---

(3) يعني فكي العلجوم

أَخَذُوا العِقْدَ وَقَتَلُوا الأَسْوَدَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الحِيلَةَ تُجْزِئُ ما لَا تُجْزِئُ القُوَّةُ « 4 ».

(ص 194 ــ 201)

(4) أصل معنى تجزىء : تغني وتكفي ، والمراد ، تحدث ما لا تحدثه القوة .

مثل الأرنب والأسد

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الميَاهِ وَالعُشْبِ . وَكَانَ فِي تِلْكَ الأَرْضِ مِنَ الوُحُوشِ فِي سَعَةِ المِيَاهِ وَالمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ. إلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنفَعُهَا ذَلِكَ لِخَوْفِهَا مِنَ الأَسَدِ ، فَاجْتَمَعَتْ وَأَتَتْ إلَى الأَسَدِ ، فَقَالَتْ لَهُ: إنَّكَ لَتُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الجُهْدِ وَالتَّعَبِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَأَمْنٌ لَنَا ، فَإِنْ أَنتَ أَمَّنْتَنَا وَلَمْ تُخِفْنَا فَلَكَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ . فَرَضِيَ الأَسَدُ بِذَلِكَ ، وَصَالَحَ الوُحُوشَ عَلَيهِ ، وَوَفَيْنَ لَهُ بِهِ . ثُمَّ إنَّ أَرْنَبًا أَصَابَتْهَا القُرْعَةُ ، وَصَارَتْ غَدَاءَ الأَسَدِ . فَقَالَتْ لِلْوُحُوشِ : إنْ أَنْتُنَّ رَفَقْتُنَّ بِي فِيمَا لَا يَضُرُّكُنَّ رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنَ الأَسَدِ: فَقَالَتِ الوُحُوشُ: وَمَا الذِى تُكَلِّفِينَنَا مِنَ الأُمُورِ ؟قَالَتْ : تَأْمُرْنَ الذِى يَنْطَلِقُ بِي إلَى الأَسَدِ أَنْ يُمْهِلَنِي رَيْثَمَا أُبْطِئُ عَلَيْهِ

بَعْضَ الإِبْطَاءِ . فَقُلْنَ لَهَا: ذَلِكَ لَكِ . فَانْطَلَقَتِ الأَرْنَبُ مُتَبَاطِئَةً حَتَّى جَاوَزَتِ الوَقْتَ الذِى كَانَ يَتَغَذَّى فِيهِ الأَسَدُ . ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَحْدَهَا رُوَيْدًا ، وَقَدْ جَاعَ ، فَغَضِبَ وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا . فَقَالَ لَهَا: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا رَسُولُ الوُحُوشِ إِلَيْكَ ، بَعَثْنَنِى وَمَعِى أَرْنَبٌ لَكَ ، فَتَبِعَنِى أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ فَأَخَذَهَا مِنِّى ، وَقَال: [illegible] الأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الوَحْشِ . فَقُلْتُ: إِنَّ هذَا غَذَاءُ المَلِكِ أَرْسَلَنِى بِهِ الوُحُوشُ إِلَيْهِ ، فَلَا تُغْضِبَنَّهُ ، فَسَبَّكَ وَشَتَمَكَ . فَأَقْبَلْتُ مُسْرِعَةً لِأُخْبِرَكَ . فَقَالَ الأَسَدُ: انْطَلِقِى مَعِى ، فَأَرِينِى مَوْضِع هذَا الأَسَدِ . فَانْطَلَقَتِ الأَرْنَبُ إِلَى جُبٍّ فِيهِ مَاءٌ غَامِرٌ صَافٍ ، فَأَطْلَعَتْ فِيهِ وَقَالَتْ: هذَا المَكَانُ ، فَاطَّلَعَ الأَسَدُ ، فَرَأَى ظِلَّهُ وَظِلَّ الأَرْنَبِ فِي المَاءِ فَلَم يَشُكَّ فِي قَوْلِهَا ، وَوَثَبَ إِلَيْهِ لِيقَاتِلَهُ ، فغرِق فِي الجُبِّ . فَانْقَلَبَتِ الأَرْنَبُ إِلَى الوُحُوشِ فَأَعْلَمَتْهُنَّ صَنِيعَهَا بِالأسد .

(ص 202 ــ 203)

مثل السمكات الثلاث

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كانَ فِيهِ ثَلَاثُ سَمَكَاتٍ: كَيِّسَةٌ ، وَأَكْيَسُ مِنْهَا ، وَعَاجِزَةٌ . وَكَانَ ذَلِكَ الغَدِيرُ بِنَجْوَةٍ مِنَ الأَرْضِ ، لَا يَكَادُ يَقْرَبُهُ أَحَدٌ ، وَبِقُرْبِهِ نَهْرٌ جَارٍ . فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتَازَ بِذلكَ النَّهْرَ صَيَّادَانِ ، فَأَبْصَرَا الغَدِيرَ ، فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشِبَاكِهِمَا ، فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ ، فَسَمِعَ السَّمَكَاتُ الثَّلَاثُ قَوْلَهُمَا: فَأَمَّا أَكْيَسُهُنَّ لَمَّا سَمِعَتْ قَولَهُمَا ارْتَابَتْ بِهِمَا ، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا ، فَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ المَكَانِ الذِى يَدْخُلُ فِيهِ المَاءُ مِنَ النَّهْرِ إِلَى الغَدِيرِ . وَأَمَّا الكَيِّسَةُ فَإِنَّهَا مَكَثَتْ مَكَانَهَا حَتَّى جَاءَ الصَّيَّادَانِ . فَلَمَّا رَأَتْهُمَا وَعَرَفَتْ مَا يُرِيدَانِ ذَهَبَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ يَدْخُلُ المَاءُ ، فَإِذَا بِهِمَا قَدْ سَدَّا ذَلِكَ المَكَانَ ، فَحِينَئِذٍ قَالَتْ: فَرَّطْتُ ، وَهذِهِ عَاقِبَةُ التَّفْرِيطِ ، فَكَيْفَ الحِيلَةُ عَلَى هذِهِ الحَالِ ؟ وَقَلَّمَا تَنْجَحُ حِيلة العجلهِ

وَالإِرْهَاقِ . غَيْرَ أَنَّ العَاقِلَ لَا يَقْنَطُ مِنْ مَنَافِعِ الرَّأْيِ ، وَلَا يَيْأَسُ عَلَى حَالٍ ، وَلَا يَدَعُ الرَّأْيِ وَالجُهْد . ثُمَّ إنهَا تَمَاوَتَتْ ، فَطَفَتْ عَلَى وَجْهِ المَاءِ مُنْقَلِبَةً عَلَى ظَهْـرِهَا تَـارَةً ، وَتَارَةً عَـلَى بَطْنِهَا ، فَأَخذَهَا الصَّيَّادَانِ فَـوَضَعَاهَـا عَلَى الأَرْضِ بَـيْنَ النَّهْرِ وَالغَدِيرِ ، فَوَثَبَتْ إلَى النَّهْرِ فَنَجَتْ . وَأَمَّا العَاجِزَةُ فَلَمْ تَزَلْ في إقْبَالٍ وَإدْبَارٍ حَتَّى صِيدَتْ .

(ص 206 ـ 207)

مكر دمنة

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ حَمْلِ الأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ ، وَأَنَّ الأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ الثَّوْرَ وَيَتَهَيَّأُ لَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغْرِيَهُ بِالأَسَدِ ، وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِتْيَانُهُ مِنْ قِبَلِ الأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ . فَقَالَ: أَيُّهَا المَلِكُ ، أَلاَ آتِي شَتْرَبَةَ فَأَنْظُرَ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ وَأَسْمَعَ كَلاَمَهُ ، لَعَلِّي أَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِ ، فَأُطْلِعَ المَلِكَ عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ . فَأَذِنَ لَهُ الأَسَدُ فِي ذَلِكَ ، فَانْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى شَتْرَبَةَ كَالكَئِيبِ الحَزِينِ ، فَلَمَّا رَآهُ الثَّوْرُ رَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: مَا كَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِكَ عَنِّي ، فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ ، وَلَعَلَّكَ فِي سَلاَمَةٍ . قَالَ دِمْنَةُ: وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلاَمَةِ مَنْ لاَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لا يُوثَقُ بِهِ ، وَلاَ يَنْفَكُّ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا عَلَى

نَفْسِهِ ! قَالَ شَتْرَبَةُ : وَما الذِي حَدَثَ ؟ قَال دِمْنَةُ: حَدَثَ مَا قُدِّرَ وَهُوَ كَائِنٌ . وَمَنْ ذَا الذِى غَالَبَ القَدَرَ ؟ وَمنْ ذَا الذِى بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيمًا مِنَ الأُمُورِ فَلَمْ يَبْطَرْ ؟ وَمَنْ ذَا الذِى بَلَغَ مُنَاهُ فَلَمْ يَغتَرَّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِى تَبِعَ هَوَاهُ فَلَمْ يَخْسَرْ ؟ وَمَنْ ذَا الذِى طَلَبَ مِنَ اللِّئَامِ فَلَمْ يُحْرَمْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِى خَالَطَ الأَشْرَارَ فَسَلِمَ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِى صَحِبَ السُّلطَانَ فَدَامَ لَهُ مِنْهُ الأَمْنُ وَالإِحْسَانُ ؟ قَالَ شَتْرَبةُ : إِنِّ أَسْمَعُ مِنْكَ كَلامًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَابَكَ مِنَ الأَسَدِ رَيْبٌ وَهَالَكَ مِنْهُ أَمْرٌ . قَالَ دِمْنَةُ : أَجَلْ ، لَقَدْ رَابَنِي مِنْهُ ذلِكَ ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفسي . قَالَ شَتْرَبَةُ : فَفِي نَفْسِ مَنْ رَابَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ تَعْلَمُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ العهْدِ وَالمِيثَاقِ أَيَّامَ أَرْسَلَنِي الأَسَدُ إِلَيْكَ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ حِفْظِكَ وَإطْلاَعِكَ عَلَى مَا اطَّلعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ . قَالَ شَتْرَبَةُ : وَمَا الَّذِى بَلَغَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الخَبِيرُ الصَّدُوقُ الَّذِى لاَ مِرْيَةَ في قَولِهِ أَنَّ الأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ : قَدْ أَعْجَبَنِي سِمَنُ الثَّورِ ، وَلَيْسَ لِي إِلى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ . فَأَنَا آكِلُهُ وَمُطْعِمٌ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي هذَا القَوْلُ وَعَرفْتُ غَدْرَهُ وَنَقْضَ عَهْدِهِ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لِأَقْضِيَ حقَّكَ ، وَتَحْتَالَ أَنْتَ لِأَمْرِكَ . فَلَمَّا سَمِعَ شَتْرَبَةُ كَلاَمَ دِمْنَةَ وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ العَهْدِ وَالمِيثَاقِ وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الأَسَدِ ، ظَنَّ أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ وَنَصَحَ لَهُ ، وَرَأَى أَنَّ الأَمْرَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَ دِمْنَةُ ، فَأَهَمَّهُ ذلِكَ وَقَالَ : مَا كَانَ لِلأَسَدِ أَنْ يَغْدُرَ بِي وَلَمْ آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا ، وَلاَ الَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ مُنْذُ

صَحِبْتُهُ ، وَلاَ أَظُنُّ الأَسَدَ إلاَّ قدْ حُمِلَ عَلَيَّ بالكَذِبِ وَشُبِّهَ عَلَيْهِ أَمْرِي ، فَإِنَّ الأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَومُ سُوءٍ وَجَرَّبَ مِنْهُمُ الكَذِبَ وَأُمُورًا هِيَ تُصَدِّقُ عِنْدَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ . فَإِنَّ صُحْبَةَ الأَشْرَارِ رُبَّمَا أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُوءَ ظَنٍّ بِالأَخْيَارِ، وَحَمَلَتْهُ تَجْرِبَتُهُ عَلَى الخطإِ كخطإِ البَطَّةِ التي زَعَمُوا أَنَّها رَأَتْ في المَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ فظَنَّتْهُ سَمَكَةً ، فَحَاوَلَتْ أَنْ تَصِيدَهَا، فَلَمَّا جَرَّبَتْ ذلِكَ مِرَارًا عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ، فتَرَكَتْهُ. ثمَّ رَأَتْ مِنْ غَدِ ذلِكَ اليَوْمِ سَمَكَةً فَظَنَّتْ أَنَّهَا مِثْلُ الذِي رَأَتْهُ بِالأَمْسِ فَتَرَكَتْهَا وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا . فَإِنْ كَانَ الأسدُ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبٌ فَصَدَّقَهُ عَلَيَّ وَسَمِعَهُ فِيَّ ، فَمَا جَرَى عَلَى غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ وَأَرَادَ السُّوءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَعْجَبِ الأُمُورِ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إنَّ مِنَ العَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ رِضَاءَ صَاحِبِهِ وَلاَ يَرْضَى ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلكَ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضَاهُ فَيَسْخَطَ ، فَإِذَا كَانَتِ المَوْجِدَةُ عَنْ عِلَّةٍ كَانَ الرِّضَاءُ مَوجُودًا وَالعَفْوُ مَأْمُولاً . وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ انْقَطَعَ الرَّجَاءُ ، لِأَنَّ العِلَّةَ إِذَا كَانَتِ المَوْجِدَةُ في وُرُودِهَا كَانَ الرِّضَاءُ مَأْمُولاً في صُدُورِهَا .

قَدْ نَظَرْتُ فَلاَ أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَسَدِ جُرْمًا وَلاَ صَغِيرَ ذَنْبٍ وَلاَ كَبِيرَهُ . وَلَعَمْرِي مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ صَاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ أَمْرِهِ ، وَلاَ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ صَغِيرَةٌ أَو كَبِيرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ . وَلكِنَّ الرَّجُلَ ذَا العَقْلِ وَذَا الوَفَاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقْطَةً نَظَرَ فِيهَا وَعَرَفَ قَدْرَ

مَبْلَغِ خَطَئِهِ عَمْدًا كَانَ أَوْ خَطأً . ثُمَّ يَنْظُرُ : هَلْ فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يُخَافُ ضَرَرُهُ وَشَيْنُهُ فَلاَ يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيلاً ؟ . فَإِنْ كَانَ الأَسَدُ قَدِ اعْتَقَدَ عَلَيَّ ذَنْبًا فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ إِلاَّ أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ رَأْيِهِ نَصِيحَةً لَهُ ، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الجُرْأَةِ عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ . وَلاَ أَجِدُ لِي فِي هذَا المَحْضَرِ إِثْمًا مَا ، لِانِّي لَمْ أُخَالِفْهُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ مَا قَدْ نَدَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ الرُّشْدِ وَالْمَنْفَعَةِ وَالدِّينِ ، وَلَمْ أُجَاهِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ عَلَى رُؤوسِ جُنْدِهِ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخْلُو بِهِ وَأُكَلِّمُهُ سِرًّا كَلاَمَ الهَائِبِ المُوقِّرِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَنِ الْتَمَسَ الرُّخَصَ مِنَ ٱلإِخْوَانِ عِنْدَ المُشَاوَرَةِ ، وَمِنَ الأَطِبَّاءِ عِنْدَ المَرَضِ ، وَمِنَ الفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ أَخْطَأَ مَنَافِعَ الرَّأْيِ ، وَازْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَوَرُّطًا ، وَحَمَلَ الوِزْرَ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هذَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ سَكَرَاتِ السُّلْطَانِ . فَإِنَّ مُصَاحَبَةَ السُّلْطَانِ خَطِرَةٌ وَإِنْ صُوحِبَ بِالسَّلاَمَةِ وَالثِّقَةِ وَالْمَوَدَّةِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هذَا فَبَعْضُ مَا أُوتِيتُ مِنَ الفَضْلِ قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ الهَلاَكُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هذَا وَلاَ هذَا فَهُوَ إِذًا مِنْ مَوَاقِعِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ الذِى لاَ يُدْفَعُ . وَالقَدَرُ هُو الذِي يَسْلُبُ الأَسَدَ قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ وَيُدْخِلُهُ القَبْرَ . وَهُوَ الذِى يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ عَلَى ظَهْرِ الفِيلِ الهَائِجِ . وَهُوَ الذِى يُسَلِّطُ عَلَى الحَيَّةِ ذَاتِ الحُمَةِ مَنْ يَنْزِعُ حُمَتَهَا وَيَلْعَبُ بِهَا . وَهُوَ الذِي يَجْعَلُ العَاجِزَ حَازِمًا ، وَيُثَبِّطُ الشَّهْمَ ، وَيُوَسِّعُ عَلَى المُقْتِرِ ، وَيُشَجِّعُ الجَبَانَ ، وَيُجَبِّنُ الشُّجَاعَ عِنْدَمَا تَعْتَرِيهِ المَقَادِيرُ مِنَ العِلَلِ التِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا الأَقْدَارُ .

قَالَ دِمْنَةُ : إنَّ إرادَةَ الأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْمِيلِ الأَشْرَارِ وَلاَ سَكْرَةِ السُّلْطَانِ وَلاَ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَلكِنَّهَا الغَدْرُ وَالفُجُورُ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ ، لِطَعَامِهِ حَلاَوَةٌ ، وَآخِرُهُ سُمٌّ مُمِيت . قَالَ شَتْرَبَةُ : فَأَرَانِي قَدِ اسْتَلْذَذْتُ الحَلاَوَةَ إذْ ذُقْتُهَا ، وَقَدِ انْتَهَيْتُ إلَى آخِرِهَا الَّذِى هُوَ الموتُ . وَلَوْلاَ الحَيْنُ مَا كَانَ مُقَامِى عِنْدَ الأَسَدِ ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ . فَأَنَا فِي هَذِهِ الوَرْطَةِ كَالنَّحْلَةِ التِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلُوفَرِ إذْ تَسْتَلِذُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ ، فَتَحْسِبُهَا تِلْكَ اللذَّةُ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضَمُّ عَلَيْهَا ، فَتَلِجُّ فِيهِ وَتَمُوتُ . وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالكَفَافِ الذِى يُغْنِيهِ ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إلَى مَا سِوَى ذَلِكَ وَلَمْ يَتَخَوَّفْ عَاقِبَتَهَا كَانَ كَالذُّبَابِ الذِى لاَ يَرْضَى بِالشَّجَرَةِ وَالرَّيَاحِينِ ، وَلاَ يُقْنِعُهُ ذَلِكَ حَتَّى يَطْلُبَ المَاءَ الذِى يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الفِيلِ ، فَيَضْرِبُهُ الفِيلُ بِأُذُنَيْهِ فَيُهْلِكُهُ . وَمَنْ يَبْذُلْ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لاَ يَشْكُرُهُ فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّبَاخِ . وَمَنْ يُشِرْ عَلَى المُعْجَبِ فَهُوَ كَمَنْ يُشَاوِرُ المَيِّتَ أَوْ يُسَارُّ الأَصَمَّ . قَالَ دِمْنَةُ : دَعْ عَنْكَ هَذَا الكَلاَمَ واحْتَلْ لِنَفْسِكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : بِأَيِّ شَيْءٍ أَحْتَالُ لِنَفْسى إذَا أَرَادَ الأَسَدُ أَكْلِي مَعَ مَا عَرَّفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الأَسَدِ وَسُوءِ أَخْلاَقِهِ ؟ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُرِدْ بِي إلاَّ خَيْرًا ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابُهُ بِمَكْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ هَلاَكِى لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ . فَإِنَّهُ إذَا اجْتَمَعَ المَكَرَةُ الظَّلَمَةُ عَلَى البَرِيءِ الصَّحِيحِ كَانُوا خُلَقَاءَ أَنْ يُهْلِكُوهُ وَإِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَهُوَ قَوِيٌّ : كَمَا أَهْلَكَ الذِّئْبُ وَالغُرَابُ وَابْنُ آوى الجَمَلَ حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ وَالخِيَانَةِ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(ص 212 ـ 220)

مثل الذئب والغراب وابن آوى والجمل

قَالَ شَتْرَبَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدَاً كَانَ فِي أَجَمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِطَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ النَّاسِ ، وَكَانَ لَهُ أَصْحَابُ ثَلاَثَة: ذِئبٌ، وَغُرَابٌ، وابْنُ آوى، وأَنَّ رُعَاةً مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ وَمَعَهُمْ جِمَالٌ ، فَتَخَلَّفَ مِنْهَا جَمَلٌ فَدَخَلَ تِلْكَ الأَجَمَةَ حَتَّى انْتَهى إِلَى الأَسَدِ . فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ مِنْ مَوْضِع كَذَا. قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : مَا يَأْمُرُنِي بِهِ المَلِكُ . قَالَ: تُقِيمُ عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالأَمْنِ وَ الخِصْبِ . فَأَقَامَ الأَسَدُ وَالجَمَلُ مَعَه زَمَنًا طوِيلاً . ثُمَّ إِنَّ الأَسَدَ مَضى فِي بَعْضِ الأَيَّامِ لِطَلَبِ الصَّيدِ ، فَلَقِيَ فِيلاً عَظِيمًا ، فَقَاتَلَهُ قِتَالاً شَدِيدًا ، وَأَفْلَتَ مِنْهُ مُثْقَلاً مُثْخَناً بِالجِرَاحِ يسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ ، وَقَدْ خَدَشَهُ الفِيلُ بِأَنْيَابِهِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلى مَكَانِهِ وَقَعَ لاَ يَسْتَطِيعُ حَرَاكا وَلاَيَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ . فَلَبِثَ الذِّئبُ وَالغُرَابُ وَابْنُ آوى أَيَّامًا لاَ يَجِدُونَ

طَعَامًا ، لأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلاتِ الأَسَدِ وَطَعَامِهِ ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ وَهُزَالٌ وَعَرَفَ الأَسَدُ ذلِكَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : لَقَدْ جَهِدْتُمْ وَاحْتَجْتُمْ إلَى مَا تَأْكُلُونَ . فَقَالُوا : لاَ تَهُمُّنَا أَنْفُسُنَا ، لكِنَّا نَرى المَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ ، فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُصْلِحُهُ . قَالَ الأَسَدُ : مَا أَشُكُّ في نَصِيحَتِكُمْ ، وَلَكِنِ انْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا تَأْتُونِي بِهِ ، فَيُصِيبَنِي وَيُصِيبَكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ فَخَرَجَ الذِّئْبُ وَالغُرَابُ وَابْنُ آوى مِنْ عِنْدِ الأَسَدِ ، فَتَنَحَّوْا نَاحِيةً ، وَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالُوا : مَالَنَا وَلِهذَا الآكِلِ العُشْبِ الذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأْنِنَا ! وَلاَ رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا ! أَلاَ نُزَيِّنُ لِلأَسَدِ فَيَأْكُلَهُ ، وَيُطْعِمَنَا مِنْ لَحْمِهِ ؟ قَالَ ابْنُ آوى : هذَا مِمَّا لاَ نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ لِلأَسَدِ ، لأَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ الجَمَلَ ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ عَهْدًا . قَالَ الغُرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الأَسَدِ . ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى الأَسَدِ ، فَقَالَ لَهُ الأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا ؟ قَالَ الغُرَابُ : إنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ . وَأَمَّا نَحْنُ فَلاَ سَعْيَ لَنَا وَلاَ بَصَرَ لِمَا بِنَا مِنَ الجُوعِ . وَلكِنْ قَدْ وُفِّقْنَا لِرَأْيٍ وَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ ، وَإِنْ وَافَقَنَا المَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ . قَالَ الأَسَدُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ الغُرَابُ : هذَا الجَمَلُ آكِلُ العُشْبِ ، المُتَمَرِّغُ بَيْنَنَا مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ ، وَلاَ رَدِّ عَائِدَةٍ ، وَلاَ عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلَحَةً . فَلَمَّا سَمِعَ الأَسَدُ ذلِكَ غَضِبَ ، وَقَالَ : مَا أَخْطَأَ رَأْيَكَ ! وَمَا أَعْجَزَ مَقَالَكَ وَأَبْعَدَكَ مِنَ الوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ ! وَمَا كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِىءَ عَلَيَّ بِهذِهِ المَقَالَةِ ، وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهذَا الخِطَابِ ، مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ الجَمَلَ وَجَعَلْتُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي . أَوَ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ م

يَتَصَدَّقُ مُتَصَدِّقٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّنْ آمَنَ نَفْسًا خَائِفَةً وَحَقَنَ دَمًا مُهْدَرًا ! وَقَدْ آمَنْتُهُ وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ . قَالَ الغُرَابُ : إِنِّي لأَعْرِفُ مَا يَقُولُ المَلِكُ . وَلَكِنَّ النَّفْسَ الوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ البَيْتِ وَأَهْلُ البيتِ تُفْتَدَى بِهِمُ القَبِيلَةُ ، وَالقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ المِصْرِ ، وَأَهْلُ المِصْرِ فِدَاءُ المَلِكِ . وَقَدْ نَزَلَتْ بِالمَلِكِ الحَاجَةُ . وَأَنَا أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجًا عَلَى أَلَّا يَتَكَلَّفَ المَلِكُ ذَلِكَ ، وَلَا يَلِيَهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَأْمُرَ بِهِ أَحَدًا وَلَكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلَهُ فِيهَا إِصْلَاحٌ وَظَفَرٌ فَسَكَتَ الأَسَدُ عَنْ جَوَابِ الغُرَابِ عَنْ هَذَا الخِطَابِ ، فَلَمَّا عَرَفَ الغُرَابُ إِقْرَارَ الأَسَدِ أَتَى أَصْحَابَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ كَلَّمْتُ الأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الجَمَلَ عَلَى أَنْ نَجْتَمِعَ نَحْنُ وَالجَمَلُ عِنْدَ الأَسَدِ ، فَنَذْكُرَ مَا أَصَابَهُ ، وَنَتَوَجَّعَ لَهُ اهْتِمَامًا مِنَّا بِأَمْرِهِ ، وَحِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِ ، وَيَعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ عَلَيْهِ تَجَمُّلًا لِيَأْكُلَهُ ، فَيَرُدُّ الآخَرَانِ عَلَيْهِ ، وَيُسَفِّهَانِ رَأْيَهُ ، وَيُبَيِّنَانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ . فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ سَلِمْنَا كُلُّنَا ، وَرَضِيَ الأَسَدُ عَنَّا . فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى الأَسَدِ . فَقَالَ الغُرَابُ : قَدِ احْتَجْتَ ـ أَيُّهَا المَلِكُ ـ إِلَى مَا يُقَوِّيكَ ، وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ أنْفُسَنَا لَكَ ، فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ ، فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لأَحَدٍ مِنَّا بَقَاءٌ بَعْدَكَ ، وَلَا لَنَا فِي الحَيَاةِ مِنْ خِيَرَةٍ ، فَلْيَأْكُلْنِي المَلِكُ ، فَقَدْ طِبْتُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَأَجَابَهُ الذِّئْبُ وَابْنُ آوى أَنِ اسْكُتْ ، فَلَا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ ، وَلَيْسَ فِيكَ شِبَعٌ . قَالَ ابْنُ آوى : لَكِنْ أَنَا أُشْبِعُ المَلِكَ ، فَلْيَأْكُلْنِي ، فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ ، وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الذِّئْبُ وَالغُرَابُ بِقَوْلِهِمَا : إِنَّكَ لَمُنْتِنٌ قَذِرٌ . قَالَ الذِّئْبُ : إِنِّي

لَسْتُ كَذَلِكَ فَلْيَأْكُلْنِي المَلِكُ ، فَقَدْ سَمَحْتُ بِذَلِكَ ، وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا . فَاعْتَرَضَهُ الغُرَابُ وَابْنُ آوى ، وَقَالاَ : قَدْ قَالَتِ الأَطِبَّاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ لَحْمَ ذِئْبٍ . فظن اجمل أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الأَكْلِ التَمَسُوا لَهُ عُذْرًا كَمَا الْتَمَسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الأَعْذَارَ ، فَيَسْلَمُ وَيَرْضى الأَسَدُ عَنْهُ بِذلِك ، وَيَنْجُو مِنَ المَهَالِكَ . فَقَالَ : لَكِنْ أَنَا فِيَّ لِلْمَلِكِ شِبَعٌ وَرِيٌّ ، وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ ، وَبَطْنِي نَظِيفٌ ، فَلْيَأْكُلْنِي المَلِكُ وَيُطْعِمْ أَصْحَابَهُ وَخَدَمَهُ ، فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ وَطَابَتْ نَفْسي عَنْهُ ، وَسَمَحْتُ بِهِ . فَقَالَ الذِّئْبُ وَالغُرابُ وَابْنُ آوى : لَقَدْ صَدَقَ الجَمَلُ وَكَرُمَ ، وَقَالَ مَا عَرَفَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَّقُوهُ .

(ص 220 ـ 225)

مثل الطيطوى ووكيل البحر

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ طَائرًا مِنْ طُيُورِ البَحْرِ يُقَالُ لَهُ الطِّيطَوَى (1) كَانَ وَطَنُهُ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ . فَلَمَّا جَاءَ أَوَان تَفْرِيخِهِمَا قَالَتِ الأُنْثَى لِلذَّكَرِ : لَوْ الْتَمَسْنَا مَكَانًا حَرِيزًا نُفَرِّخُ فِيهِ ، فإنِّي أَخْشَى مِنْ وَكِيلِ البَحْرِ (2) إِذَا مَدَّ المَاءُ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاخِنَا . فقال لها : أَفْرِخِي مَكَانَكِ، فإِنَّهُ مُوَافِقٌ لَنَا وَالمَاءُ وَالزَّهَرُ مِنَّا قَرِيبٌ . قَالَتْ لَهُ : يَاغَافِلُ ! لِيَحْسُنْ نَظَرُكَ فَإِنِّي أَخَافُ وَكِيلَ البَحْرِ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاخِنَا . فَقَالَ لَهَا :

---

(1) الطيطوي: من الطيور التى لا تفارق الآجام والمياه لانه لا ينال قوته إلا في شاطىء الغياض والآجام من دود تتن. وقيل يطمئن هذا الطائر ويصيح ولا ينفر من موضعه إلا اذا طلبه البازى فيهرب، فاذا كان في الليل صاح وأما في النهار فيكمن في الحشيش ولا يصيح.

(2) وكيل البحر، وفي بعض النسخ الموكل بالبحر، يؤخذ من سياق المثل أنه حيوان بحري أو خرافي لا وجود له.

أَفْرِجِي مَكَانَكِ ، فَإِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ . فَقَالَتْ لَهُ : مَا أَشَدَّ تَعَنُّتَكَ ! أَمَا تَذْكُرُ وَعِيدَهُ وَتَهَدُّدَهُ إِيَّاكَ ! أَلَا تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ ؟! فَأَبَى أَنْ يُطِيعَهَا. فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهَا قَالَتْ لَهُ : إِنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَولَ النَّاصِحِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ السُّلَحْفَاةَ حِينَ لَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ البَطَّتَيْنِ . قَالَ الذَّكَرُ : وكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتِ الأُنْثَى : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ عِنْدَهُ عُشبٌ ، وَكَانَ فِيهِ بَطَّتَانِ وَكَانَ فِي الغَدِيرِ سُلَحْفَاةٌ بَيْنَهَا وَبَين البطتين مودة وَصَدَاقَةٌ ، فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ ذَلِكَ المَاءُ ، فَجَاءَتِ البَطَّتان لِوداع السُّلَحْفَاةِ ، وَقَالَتَا : السَّلَامُ عَلَيْكِ ، فَإِنَّنا ذَاهِبَتَان عَنْ هـذَا المَكَانِ لِأَجْلِ نُقْصَانِ المَاءِ عَنْهُ . فَقَالَتْ: إِنَّمَا يَبِينُ نُقْصَانُ الماء عَلَى مِثْلِي ، فَإِنِّي كَأَنِّي السَّفِينَةُ لَا أَقْدِرُ عَلَى العَيْشِ إِلَّا بِالمَاءِ . فَأَمَّا أَنْتُمَا فَتَقْدِرَانِ عَلَى العَيْشِ حَيْثُ كُنْتُمَا ، فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمَا . قَالَتَا لَهَا : نَعَمْ . قَالَتْ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمْلِي ؟ قَالَتَا : نَأْخُذُ بِطَرَفَيْ عُودٍ وَتَتَعَلَّقِينَ بِوَسَطِهِ ، وَنَطِيرُ بِكِ فِي الجَوِّ . وَإِيَّاكِ إِذَا سَمِعْتِ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ أَنْ تَنْطِقِي . ثُمَّ أَخَذَتَاهَا وَطَارَتَا بِهَا فِي الجَوِّ . فَقَالَ النَّاسُ : عَجَبٌ سُلَحْفَاةٌ بَيْنَ بَطَّتَيْنِ قَدْ حَمَلَتَاهَا ! لَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ : فَقَأَ اللهُ أَعْيُنَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَلَمَّا فَتَحتْ فَاهَا بِالنُّطْقِ وَقَعَتْ عَلَى الأَرْضِ فَمَاتَتْ . قَالَ الذَّكَرُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكِ فَلَا تَخَافِي وَكِيلَ البَحْرِ . فَلَمَّا مَدَّ المَاءُ ذَهَبَ بِفِرَاخِهِمَا . فَقَالَتِ الأُنْثَى : قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدءِ الامْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ . قَالَ الذَّكَرُ : سَوْفَ أَنْتَقِمُ مِنهُ . ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ

الطَّيْرِ فَقَالَ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ أَخَوَاتِي وَثِقَاتِي ، فَأَعِنَّنِي . قُلْنَ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ قَالَ : تَجْتَمِعْنَ وَتَذْهَبْنَ مَعِي إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ فَنَشْكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيتُ مِنْ وَكِيلِ البَحْرِ ، وَنَقُولُ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنَا فَأَعِنَّنَا ، فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ : إِنَّ العَنْقَاءَ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا ، فَاذْهَبْ بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصِيحَ بِهَا ، فَتَظْهَرَ لَنَا فَنَشْكُوَ إِلَيْهَا مَا نَالَكَ مِنْ وَكِيلِ البَحْرِ ، وَنَسْأَلَهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا . ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطِّيطَوَى فَاسْتَغَثْنَهَا وَصِحْنَ بِهَا ، فَتَرَاءَتْ لَهُنَّ ، فَأَخْبَرْنَهَا بِقِصَّتِهِنَّ وَسَأَلْنَهَا أَنْ تَسِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى مُحَارَبَةِ وَكِيلِ البَحْرِ . فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ البَحْرِ أَنَّ العَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ مَلِكٍ لاَ طَاقَةَ لَهُ بِهِ ، فَرَدَّ فِرَاخَ الطِّيطَوَى وَصَالَحَهُ ، فَرَجَعَتِ العَنْقَاءُ عَنْهُ .

(ص 227 ـ 231)

أنا أكلت حديدك

قَالَ كَليلَةُ : زَعَمُوا أَنَّـهُ كَانَ بِـأَرْضِ كَذَا تَـاجِرٌ ، فَـأَرَادَ الخُرُوجَ إلى بَعْضِ الوُجُوهِ لابْتِغَاءِ الرِّزْقِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِائَةُ مَنٍّ حديدًا . فَأَوْدَعَهَا رَجُلاً مِنْ إخْوَانِـهِ ، وَذَهَبَ في وَجْهِهِ . ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ فَجَاءَ وَالتَمَسَ الحَديدَ . فَقَالَ لَهُ : إنَّهُ قَدْ أَكَلَتْهُ الجُرْذَانُ . فَقَـالَ : قَدْ سَمِعْتُ أَنَّـهُ لا شَيْءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيدِ . فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَصْدِيقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَادَّعَى . ثُمَّ إنَّ التَّاجِرَ خَرَجَ فَلَقِيَ ابْنًا لِلرَّجُلِ ، فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إلَى مَنْزِلِهِ . ثُمَّ رَجَعَ إلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الغَدِ ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِـابْنِي ؟ فَقَالَ لَـهُ التَّاجِـرُ : إنِّي لَمَّا خَـرَجْتُ مِنْ عِنْـدِكَ بِالأَمْسِ رَأَيْتُ بَازِيًا قَدِ اخْتَطَفَ صَبِيًّا . وَلَعَلَّهُ ابْنُكَ . فَلَطَمَ الرَّجُلُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ : يَاقَومُ ، هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُم أَنَّ البُزَاةَ تَخْطَفُ الصِّبْيَانَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، وَإنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْذَانُهَا

مِائَةَ مَنٍّ حَدِيدًا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ تَخْتَطِفَ بُزَاتُهَا الفِيَلَةَ . فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَنَا أَكَلْتُ حَدِيدَكَ وَهذَا ثَمَنُهُ ، فَارْدُدْ عَلَيَّ ابْنِي .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هذَا المَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا غَدَرْتَ بِصَاحِبِكَ فَلَا شَكَّ أَنَّكَ بِمَنْ سِوَاهُ أَغْدَرُ ، وَأَنَّهُ إِذَا صَاحَبَ أَحَدٌ صَاحِبًا وَغَدَرَ بِمَنْ سِوَاهُ فَقَدْ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ لَيسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ . فَلَا شَيْءَ أَضْيَعُ مِنْ مَوَدَّةٍ تُمْنَحُ مَنْ لَا وفَاءَ لَهُ ، وَحِبَاءٍ يُصْطَنَعُ عِنْدَ مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلى مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلَا يَسْمَعُهُ وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ عِنْدَ مَنْ لَا يَحْفَظُهُ ، فَإِنَّ صُحْبَةَ الأَخْيَارِ تُورِثُ الخَيْرَ ، وَصُحْبَةَ الأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ ، كَالرِّيحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطِّيبِ حَمَلَتْ طِيبًا ، وَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتْنًا ، وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلَامِي عَلَيْكَ .

(ص 242 ـ 243)

في مجلس القاضي

جَاءَ رَسُولٌ فَانْطَلَقَ بِدِمْنَةَ إلى الجمْعِ عِنْدَ القَاضي . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَي القَاضي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ المَجْلِسِ ، فَقَالَ : يادِمْنَةُ قَدْ أَنْبَأَنِي بِخَبَرِكَ الأَمِينُ الصَّادِقُ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، لِأَنَّ العُلَمَاءَ قَالُوا : إنَّ الله تَعَالى جَعَلَ الدُّنْيَا سَبَبًا وَمِصْدَاقًا لِلآخِرَةِ ، لِأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ الدَّالِّينَ عَلَى الخَيْرِ ، الهَادِينَ إلى الجَنَّةِ ، الدَّاعِينَ إلَى مَعْرِفَةِ الله تَعَالَى . وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا ، وَأَخْبَرَنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ إلَّا أَنَّ سَيِّدَنَا أَمَرَنَا بِالعَوْدِ في أَمْرِكَ ، وَالفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَنَا ظَاهِرًا بَيِّنًا . قَالَ دِمْنَةُ : أَرَاكَ – أَيُّهَا القَاضي – لَمْ تَتَعَوَّدِ العَدْلَ في القَضَاءِ وَلَيْسَ فِي عَدْلِ المُلُوكِ دَفْعُ المَظْلُومِينَ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ إلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ ، بَلِ المُخَاصَمَةُ عَنْهُمْ وَالذَّوْدُ . فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أُخَاصَمْ ،

وَتَعَجَّلَ ذَلِكَ مُوَافَقَةً لِهَوَاكَ ، وَلَمْ تَمْضِ بَعْدُ ذَلِكَ ثَلاَثَةُ أَيَّام ؟ وَلكِنْ صَدَقَ الذِى قَالَ : إنَّ الذِى تَعَوَّدَ عَمَلَ البِرِّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَإن أَضرَّ بِهِ . قَالَ القَاضِى : إنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ أَنَّ القَاضِى يَنْبَغِى لَهُ أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الُمحْسِنِ وَالُمسِيءِ لِيُجَازِيَ الُمحْسِنَ بِإحْسَانِهِ ، وَالُمسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَ إلَى هَذَا ازْدَادَ الُمحْسِنُونَ حِرْصًا عَلى الإِحْسَانِ ، وَالُمسِيئُونَ اجتِنَابًا لِلذُّنُوبِ . وَالرَّأْيُ لَكَ ــ يَادِمْنَةُ ــ أَنْ تَنْظُرَ الذِى وَقَعَتْ فِيهِ ، وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ ، وَتُقِرَّ بِهِ ، وَتَتُوبَ . فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ : إنَّ صَالِحِي القُضَاةِ لَا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ. وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ ، لَا فِي الخَاصَّةِ وَلَا فِي العَامَّةِ ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا . وَأَنْتُمْ إنْ ظَنَنْتُمْ أَنِّى مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ ، وَعِلْمِي بِنَفْسي يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَعِلْمُكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ وَإِنَّمَا قَبَّحَ أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سَعَيْتُ بِغَيْرِي ، فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إذَا سَعَيْتُ بِنَفْسي كَاذِبًا عَلَيْهَا ؟ فَأَسْلَمْتُهَا لِلْقَتْلِ وَالعَطَبِ عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِبَرَاءَتِي وَسَلاَمَتِي مِمَّا قُرِفْتُ بِهِ (1) وَنَفْسي أَعْظَمُ الأَنْفُسِ عَلَيَّ حُرْمَةً ، وَأَوْجَبُهَا حَقًّا؛ فَلَوْ فَعَلْتُ هذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَدْنَاكُمْ لَمَا وَسِعَنِي فِي دِينِي ، وَلَا حَسُنَ بِي فِي مُرُوءَتِي ، وَلَا حَقَّ لِي أَنْ أَفْعَلَهُ . فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسي ؟ فَاكْفُفْ ــ أَيُّهَا القَاضِي ــ عَنْ هَذِهِ المَقَالَةِ ، فَإِنَّهَا إنْ كَانَتْ مِنْكَ نَصِيحَةً ، فَقَدْ أَخْطَأْتَ مَوْضِعَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً فَإِنَّ أَقْبَحَ الخِدَاعِ مَا نَظَرْتَهُ

(1) قرفت به: اتهمت به.

وَعَرَفْتَ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الخِدَاعَ وَالمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ صَالِحِي القُضَاةِ ، وَلَا تُقَاةِ الوُلَاةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ قَولَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الجُهَّالُ وَالأَشْرَارُ سُنَّةً يَقْتَدُونَ بها ؛ لأَنَّ أَمْرَ القُضَاةِ يَأْخُذُ بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ ، وبخطئها أَهْلُ الخَطَإِ وَالبَاطِلِ وَالقَلِيلُو الوَرَعِ . وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكَ ــ أَيُّهَا القَاضِي ــ مِنْ مَقَالَتِكَ هذِهِ أَعْظَمَ الرَّزَايَا وَالبَلَايَا . •اَ°سَ مِنَ البَلَاءِ وَالمُصِيبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ المَلِكِ وَالجُنْدِ وَالخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ فَاضِلًا فِي رَأْيِكَ ، مُقْنِعًا فِي عَدْلِكَ ، مَرْضِيًّا فِي حُكْمِكَ ، وَعَفَافِكَ وفَضْلِكَ . وَإِنَّمَا البَلَاءُ كَيْفَ أُنسِيتَ ذَلِكَ فِي أَمْرِي ؟

(ص 266 ــ 269)

اخـــوان الصفـــاء

قَالَ الغُرَابُ : إنَّ مِنْ عَلاَمَاتِ الصَّدِيقِ أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِ صَدِيقِهِ صَدِيقًا ، وَلِعَدُوِّ عَدُوِّهِ عَدُوًّا . وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبٍ وَلاَ صَدِيقٍ مَنْ لاَ يَكُونُ لَكَ مُحِبًّا . وَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَيَّ قَطِيعَةُ مَنْ كَانَ كَـذَلِكَ مِنْ جَـوْهَـرِى . ثُمَّ إِنَّ الجُـرَذَ خَـرَجَ إِلَى الغُـرَابِ ، فَتَصَافَحَا وَتَصَافَيَا ، وَأَنِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ . حَتَّى إِذَا مَضَتْ لَهُمَا أَيَّامٌ قَالَ الغُرَابُ لِلْجُرَذِ : إِنَّ جُحْرَكَ قَـرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ . وَأَخَافُ أَنْ يَرْمِيَـكَ بَعْضُ الصِّبْيَانِ بِحَجَـرٍ . وَلِي مَكَانٌ فِي عُزْلَةٍ ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلاَحِفِ . وَهُـوَ مُخْصِبٌ مِنَ السَّمَكِ . وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ . فَأُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنَيْنِ . قَـالَ الجُرَذُ: إِنَّ لِي أَخْبَارًا وَقِصَصًا سَأَقُصُّهَا عَلَيْكَ إِذَا انْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ . فَافْعَلْ مَا تَشَاءُ . فَأَخَذَ الغُرَابُ بِذَنَبِ الجُرَذِ . وَطَارَ بِهِ حَيْثُ أَرَادَ .

فَلَمَّا دَنَا مِنَ العَيْنِ التي فِيهَا السُّلَحفَاةُ بَصُرَتِ السُّلَحْفَاةُ بِغُرَابٍ وَمَعَهُ جُرَذٌ . فَذُعِرَتْ مِنْهُ ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا . فَنَادَاهَا . فَخَرَجَتْ إلَيْهِ ، وَسَأَلَتْهُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَأَخْبَرهَا بِقِصَّتِهِ حِينَ تَبِعَ الحَمَامَ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الجُرَذِ حَتَّى انْتَهَى إلَيهَا . فلما سَمِعَتِ السُّلَحْفَاةُ شَأْنَ الجُرَذِ عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوفَائِهِ وَرَحَّبَتْ بِهِ . وَقَالَتْ لَهُ : مَاسَاقَكَ إلَى هَذِهِ الأَرْضِ ؟ قَالَ الغُرَابُ لِلْجُرَذِ : اقْصُصْ عَلَيَّ الأَخْبَارَ التى زَعَمْتَ انَّكَ تُحَدِّثُني بِهَا . فَأَخْبِرْنِي بِهَا مَعَ جَوابِ مَا سَأَلَتِ السُّلَحْفَاةُ ، فَإِنَّهَا عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي . فَبَدَأَ الجُرَذُ وَقَالَ : كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِى بِمَدِينَةِ مَارُوتَ ، فِي بَيْتِ رَجُلٍ نَاسِكٍ ، وَكَانَ خَالِيًا مِنَ الأَهْلِ وَالعِيَالِ ، وَكَانَ يُؤْتَى فِي كُلِّ يَوْمٍ بِسَلَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ فَيأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ ، وَيُعَلِّقُ البَاقِيَ . وَكُنْتُ أَرْصُدُ النَّاسِكَ حَتَّى يَخْرُجَ ، وَأَثِبُ إلَى السَّلَّةِ ، فَلاَ أَدَعُ فِيهَا طَعَامًا إلَّا أَكَلْتُهُ ، وَأَرْمِي بِهِ إلَى الجِرْذَانِ . فَجَهِدَ النَّاسِك مِرارًا أَنْ يُعَلِّقَ السَّلَّةَ مَكَانًا لاَ أَنَالُهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ضَيْفٌ فَأَكَلاَ جَمِيعًا . ثُمَّ أَخَذَا فِي الحَدِيثِ . فَقَالَ النَّاسِكُ لِلضَّيْفِ : مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ تُرِيدُ الآنَ؟ وَكَانَ الرَّجُلُ قَدْ جَابَ الآفَاقَ ، وَرَأَى عَجَائِبَ . فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ النَّاسِكَ عَمَّا وَطِىءَ مِنَ البِلاَدِ ، وَرَأَى مِنَ العجَائِبِ . وَجَعَلَ النَّاسِكُ خِلاَلَ ذلِكَ يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ لِيُنَفِّرَنِي عَنِ السَّلَّةِ . فَغَضِبَ الضَّيْفُ ، وَقَالَ : أَنَا أُحَدِّثُكَ وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثي . فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَأَلْتَنِي؟ فَاعْتَذَرَ إلَيْهِ النَّاسِكُ ، وَقَالَ : إنَّمَا أُصَفِّقُ بِيَدِي لِأُنَفِّرَ جُرَذًا قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَسْتُ أَضَعُ فِي البَيْتِ

شَيْئًا إلَّا أَكَلَهُ . فَقَالَ الضَّيْفُ : جُرَذٌ وَاحِدٌ أَمْ جُرْذَانٌ كَثِيرَةٌ ؟
فَقَالَ النَّاسِكُ : جِرْذَانُ الْبَيْتِ كَثِيرَةٌ ، وَلكِنَّ فِيهَا جُرَذًا وَاحِدًا
هُو الذِى غَلَبَنِي ، فَمَا أَسْتَطِيع لَهُ حِيلَةً .

(ص280 ـ 281)

الفهرس

فهرس النصوص المختارة

من كليلة ودمنة :

انتهى طبع هذا الكتاب
بالمطبعة العربية
بن عروس - تونس
سحب من هذا الكتاب 3.000 نسخة

الطبعة الأولى
جـــوان 1991





الدكتور أحمد الطويل أستاذ محاضر بالجامعة التونسية.

ــ متحصّل على دكتوراه الدولة في الآداب والتّبريز في اللّغة والآداب العربية

ــ نشر حوالي عشرين كتابا في البحث والتحقيق والقصة وأدب الرحلة

ــ نشر أبحاثة ومقالاته في العديد من الصحف والمجلات بتونس والمشرق.

ــ شارَك في ملتقيات علمية عدّة بتونس والخارج

هذا الكتاب، من سلسلة اعلام العرب، يعرّف بعلم منهم ويقدّم عينات مختارة من آثاره الأدبية والفكرية

ر.د.م.ك 6 ـ 078 ـ 10 ـ 9973

جوان 1991

السّعر: 2.600 د. ت.